بحالة من الهلع، خوفاً من نقص المواد الغذائية أو الماء أو انقطاع الكهرباء أو مشتقات النفط.

وبالرغم من أن الاحتلال أغلق الجامعات والمدارس، وفتح سجوناً ومعتقلات جديدة، لتتسع لعشرات الآلاف من المعتقلين والأسرى، فإن الجامعات الفلسطينية كانت تؤدي رسالتها في غير مكان، وينتقل المحاضر مع طلبته، رغم الحواجز ومنع التجوال، من مكان إلى آخر، مثلما ظلت الجامعات البوابة الأولى التي تشتعل، ليكتمل الحريق المقدّس. . ويمتد من الجامعة إلى المسجد فالكنيسة والشارع والمخيم.

كان الشاب في الانتفاضة تلك يخجل من نفسه، ويتحاشى نظرات أهله وجيرانه، إذا لم يعتقل أو ينخرط في أتون المجابهة. وكانت المجالس جميعها تتغنى بالبطولات الجماعية، وتبحث عن دورها لتؤديه، كأنها برلمان صغير أو مجلس شورى للحارة أو البلدة، وكانوا يحرصون على الانتفاضة حرصهم على دماء أبنائهم، وأيام فلذات أكبادهم التي تنزف تحت رعب الهراوات ومدافع الغاز والكلاب المسعورة والرصاص المجنون، في ساحات السجون والزنازين المرعبة!

لم تعرف الانتفاضة تلك أنْ تَمَايز جارٌ عن جاره، أو ضرب أحدهم دفاً في عرس ابنه، ولم يخشع لشهادة ابن بلده! أو وضع أحدهم ربطة عنق يوم العيد، في حين تحوّلت المضافات والبيوت الثكلى إلى عناق حميم، وأيد تضع «ما تيسّر» في أياد أخرى.

لقدً كانت تلك الانتفاضة إثباتاً ناصعاً على إمكانية تحقيق أحلام الجمهوريات المثالية أو اليوتوبيا، رغم الحالة الاستثنائية التي كان يعيش الناس تحت وطأتها، بل ربما ساعد وجود الاحتلال وتحدّيه، بتلك البسالة

الجماعية المتواصلة، على سموّ الناس وارتفاعهم عن «عاديّتهم» واختراقهم الصورة الطبيعية المعتادة.

2. قراءة فيما يجري

قلنا: لنبدأ من الطرقات التي تربط بين محافظات فلسطين، التي كانت آمنةً، نذرعها.. ونذهب ونعود، دون أن نخشى شيئاً! كان هذا خلال سني الانتفاضة الأولى، التي ينبغي أن نسميها الكبرى أو الأم. وكان المستوطنون المتطرفون، الذين احتلوا ذُرى الجبال، وعبّروا، بدقة وبراعة، عن أنهم يستخلصون العبر، وأكّدوا أن فوبيا «مسّادا» ما زالت فيهم.. هؤلاء المستوطنون كانوا لا يجرؤون على المرور بمركباتهم وسياراتهم، من تلك الطرقات. وأذكِّر مرةً أخرى، كان هذا إبان الانتفاضة الكبرى.

أما اليوم، وخلال هذه الانتفاضة أو الحرب.. سيّان! فإن المعادلة انقلبت مئة وثمانين درجة، فأصبح المستوطنون في أمان واطمئنان، وأصبحنا نحن الذين نرهب المرور بها أو قطعها.. حتى تكرّس السجن، وأصبح الفصل العنصري، أي إغلاق المدن والقرى، من قوات الاحتلال الإسرائيلي، فصلاً أكثر وحشيةً وعنصريةً من أبرتهايد جنوب أفريقيا، وبذلك تفوقت نابلس أو الخليل على سويتو. وأصبح مانديلا الإفريقي آلافاً مؤلفة في باستيلات الاحتلال، الذي استطاع، وبجدارة عالية، أن يُعيد إنتاج أعتى أشكال القمع، على جلودنا وأرواحنا.

وكردٍ شامل وحاسم، جاءت هذه الانتفاضة، التي نسميها انتفاضة

الأقصى، على كل أشكال الاحتلال اليهودي في ظل ظروف مختلفة، عن تلك التي أحاطت بالانتفاضة السابقة العميقة والواسعة، الأمر الذي جعل الانتفاضة الجديدة هذه بمثابة حرب استقلال فلسطينية. . تتواصل وتبقى، حتى يحصل الفلسطينيون على أدنى حقوقهم الوطنية المتمثلة بالدولة والسيادة والقدس عاصمة لها، وعودة اللاجئين.

وبالرغم من أن الخطابات السياسية والإعلامية الصادرة عن الفلسطينيين، اتفقت على أهداف هذه الانتفاضة، إلى حدٍّ ما، فإن أحداً لم يعجم هذه الأهداف، ولم يفحص فيما إذا كانت هذه الانتفاضة تستطيع أن «تحمل» هذه الأهداف الكبيرة، نسبياً، أم لا!

بمعنى هل من الحكمة أن يبقى خطابنا مُطلقاً كمطلب رئيس لهذه لانتفاضة، أم نحدد أهدافاً بعينها، حتى نستطيع أن ننجزها من خلال دم هذه الانتفاضة وعرقها وتضحياتها، مثل الاستيطان أو إعلان الدولة أو القدس أو اللاجئين، أو حتى تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في أوسلو وما تبعها من اتفاقات!

وثمة اتفاق معلن، بين كل الفصائل الفلسطينية، الوطنية والإسلامية، على مواصلة هذه الانتفاضة، ما فسح المجال لهذا التجلي الملموس للوحدة الوطنية، لكننا لم نلمس مسألتين: الأولى أن بعض الفصائل الفلسطينية لم تحسم أمرها كلياً للدخول في أتون هذه الانتفاضة، إلا بمقدار، تبريراً من هذه الفصائل الإسلامية، بالتحديد، أن هذه الانتفاضة جاءت لتحسين شروط المفاوضات، وليس لكنس الاحتلال كُلياً. ولعل ما برر موقف هذه الفصائل هو عدم التصريح الجازم من السلطة الوطنية بأن هذه الانتفاضة ستتواصل حتى القدس والدولة والاستقلال وعودة

اللاجئين، الأمر الذي أوضح أن ثمة موقفين داخل السلطة: الأول من أتباع أن الانتفاضة أدت رسالتها وحسّنت شروط تفاوضنا، والثاني أن الانتفاضة يجب أن تتواصل حتى النهاية، أي حتى الاستقلال والقدس والعودة. أما المسألة الثانية فهي غياب السلطة، نسبياً، عن ضبط بعض الأمور والسيطرة على كل الأذرع والإحداثيات.

ولعل أحداث الانتفاضة هذه كشفت ضعف ثلاثة عناوين في الساحة الفلسطينية، أولّها وزارات السلطة، وثانيها الاقتصاد الوطني، والثالث المعارضة الفلسطينية، التي لم تثبت أن لديها استراتيجية كاملة، موازية لاستراتيجية، واجبة الوجود، لدى السلطة، وتحمل الإجابات المطلوبة عن كل الأسئلة. عدا غياب واضح لمعظم النقابات والاتحادات والمؤسسات الأهلية، التي لعبت في الانتفاضة الأولى دوراً مشرفاً وعميقاً ومتقدماً.

وهنا لا أريد أن أشير إلى غياب بعض الأجهزة، إلى حد كبير، خصوصاً أن حضورها الفاعل مطلوب الآن، أكثر من أي وقت مضى، حتى تقوم بحراسة الكوادر الفلسطينية التي تتم تصفيتها، وكذلك باعتقال الأصابع الخفية المزروعة للتخريب في صفوفنا، وكذلك دفع دماء جديدة لإنعاش العمليات الفدائية النوعية وتطويرها، هنا وهناك!

أما غياب الإعلام، فهذا ما يتحدث عنه الكثيرون، ولن أخوض في مياهه الواسعة! بالرغم من أن هذا الغياب يؤدي إلى سيطرة موقف الآخر إقليمياً وعالمياً، ويشيع الشائعات السوداء في صفوفنا، ويشكل خطورة بالغة كحرب نفسية مُسلطة علينا، في ظل غياب المعلومة الصحيحة والمستندة إلى المعطيات والوقائع، وبلسان مبين.

ولعل شباب «فتح»، وبلا مبالغة، هي التي تقود هذه الانتفاضة، ومن خلفها كل أبناء شعبنا وأطره وقواه. . ! رغم أن الاحتلال الإسرائيلي حاول أن يضرب هذه الحركة، من خلال الشائعات، وتصوير الأمور عكس ما هي عليه، حيث ادّعت الدولة العبرية، عبر مسؤوليها وأجهزتها الإعلامية، أن «التنظيم» هو الذي يقود الانتفاضة. . بمعنى أن السلطة الوطنية وحركة «فتح» بريئان من هذا «التنظيم» الذي يجب ضربه!! والذي يشكل خطراً، ليس على إسرائيل فحسب، بل وعلى حركة «فتح» نفسها، من خلال «الانشقاق» و«عدم الانضباط» و«الخروج على تعاليم القيادة الفلسطينية»!!

وللحقيقة فإن هناك ثلاث قراءات داخل حركة «فتح» لهذه الانتفاضة: القراءة الأولى تتمثل في الرأي، سالف الذكر، الذي يقول إن الانتفاضة أدّت دورها، وحسّنت شروطنا في التفاوض، ويجب أن تتوقف. ومبرر أصحاب هذه القراءة هو خوفهم على السلطة الوطنية، وحتى لا تقع «شيشان جديدة» إذا تفاقمت الأمور. أما القراءة الثانية فإنها تتمثل في مراقبة ما يجري، ومتابعة التفاعلات، واتّباع الخط الذي سينتصر ويغلب، دون أن يعترض أصحاب هذه القراءة على ما يجري أو يساندونه. وتبقى القراءة الثالثة، المتمثلة في دعم الانتفاضة وتطويرها، حتى تحقق كامل أهدافها، من الدولة والاستقلال، حتى القدس عاصمةً وعودة اللاجئين!

هذه القراءات، وما جاء قبلها من قراءة، هو ما يفسر لماذا بقيت الأعمال ضد قوات الاحتلال أعمالاً فردية! ولماذا نرى ثغرات هناك، ونكوصاً هنا!

ولعل السلطة الوطنية الفلسطينية في وضع، أقل ما يوصف به، بأنه مضغوط! فالدول العربية والإسلامية، ورغم مؤتمرات القمة، فإنها لم تقدم أي دعم اقتصادي أو مالي أو سياسي نوعي أو جماهيري يذكر لتقوية السلطة ومدّها بأسباب الاندفاع والتقدم، بل إن الضغوطات السياسية التي تُمارس على السلطة، بهدف عودتها إلى طاولة المفاوضات لم تتوقف، ناهيك عن ضغوطات أوروبا وباقي «الأصدقاء» في العالم.

لهذا، نجد السلطة الوطنية مضطرة لحضور أي اجتماع أو لقاء أو مؤتمر، حتى تؤكد، للمرة المليون، أنها لا تريد القمر أو المستحيل، بل حماية شعبها، ودرء الموت عنه، وتطبيق الاتفاقات، وتسوية تاريخية مقبولة!

أما ما يثقل الضغوط ويزيدها على السلطة الوطنية، عدا الحياد العربي السلبي، هو الوضع الاقتصادي المتردي للشعب الفلسطيني، وانغلاق آفاق الحلّ بسبب موقف الولايات المتحدة الأمريكية ودعمها المطلق للحكومة داخل الدولة العبرية، إضافة إلى أن أوروبا واليابان وروسيا وغيرها لم ترتق إلى مستوى تصبح فيه شريكاً يركن إليه، أو قوة يعوّل عليها، بل أثبتت الأيام أنها دول تتبع مصالحها، أو مُستلبة لصالح وحيدة القرن أمريكا!

لهذا أعتقد أن لا خيار أمامنا، نحن الفلسطينيين، إلا الاستمرار في هذه الانتفاضة حتى النهاية. وعليه، ينبغي أن نحدد خطابنا ونعلنه واضحاً لا لبس فيه، وأن نعيد توظيف أوراقنا وإطلاق قدراتنا المعطلة واستنفارها، وأن نبحث عن آليات إضافية، ونطوّر الأساليب النافذة المؤثرة، في مواجهتنا للاحتلال وعدوانه الدموي، وأن ننتظم جميعنا في الناظم الوطني الذهبي، على قاعدة أن الجميع في مواجهة الاحتلال،

سلطةً وفصائل وجماهير، وأن نبتعد عن كل ما يثبط عزائمنا واندفاعنا المقدس، وأعني اللقاءات التي «لا تضر ولا تنفع» من اللقاءات الأمنية إلى اللقاءات التفاوضية، لا لشيء إلا لأن لسان مسؤولي الدولة اليهودية ما فتئوا يؤكدون أن هدفهم من هذه الاجتماعات هو «وقف العنف والإرهاب» الفلسطيني، أو تقديم صورة أكثر «مكياجاً» مما تم تقديمه في كامب ديفيد مؤخراً، ولكن على حساب تأجيل قضايا حيوية ومصيرية شديدة الخطورة والأهمية، فهل نضيّع المزيد من الوقت فيما هو غير مفيد، في حين تنتظرنا قضايا بحاجة إلى كل ثانية وانتباهة وتفكير نصرفها فيما هو أكثر جدوى وفائدة، وأعني كيف نطوّر الانتفاضة.. لتبقى؟!

3. المفاوضات .. إذا وقعت!

التاريخ، ومنذ أيامه المبكرة، حتى اليوم، لم تجف يده، وهو يكتب بدماء ضحايا الحروب التي لم تتوقف، على هذه المعمورة، بعد!! وكان ثمة مساران متوازيان، يحكمان تلك الحروب الطاحنة، يسبق أحدهما الآخر، ليغلب الآخر على الأول، أو العكس ضمن جدلية لا تتوقف، تقوم على أن الحرب تؤدي إلى المفاوضات، وأن المفاوضات أحياناً تكون سبباً للحروب.

وفي حالتنا الفلسطينية، انطبقت هذه المعادلة، أيضاً. وكان طبيعياً، بعد أن فشل أحد الطرفين في إلغاء الآخر، أن يصلا ولو بتردد شديد إلى طاولة المفاوضات. غير أن التعصب وصلف القوة، والعدوانية والعنصرية التي ما زالت تحكم الطرف الإسرائيلي المعتدي، جددت عزيمة

الشعب الفلسطيني، ليعلن رفضه، للمرة المليون، كل أشكال الاحتلال والعدوان، مثلما يعلن رغبته في سلام شامل آمن وعادل.

ولعل الانتفاضة التي يغلي أوارها منذ شهور طويلة، دفعت الإسرائيليين، بالضرورة، مثلما أجبرت أصحاب المصالح في منطقتنا، إلى إعادة الإنصات للمطالب الفلسطينية العادلة والمشروعة. وعليه فمن المتوقع أن المفاوضات قد تقع، ولو شكلانياً، وأن الجلسات ستعود لتحتل، بمشاهد المصافحات واللقاءات، شاشات التلفزة ووسائل الإعلام، لمناقشة قضايا جانبية، وهنا، ينبغي أن ننتبه إلى غير مسألة، أهمها:

أولاً: يجب أن تكون المفاوضات المتوقعة على أسس وقواعد جديدة، واضحة المرجعية والأهداف، بما في ذلك آليات التنفيذ الملزمة للجانب الإسرائيلي.

ثانياً: أن تقدم التسوية القادمة إجابات شافية للشعب الفلسطيني، تشمل كل قضايا الحلّ النهائي من القدس العاصمة، إلى السيادة الكاملة على الأرض حتى حدود الرابع من حزيران 1967، وعودة اللاجئين، وتفكيك المستوطنات، والسيادة التامة على المعابر والمياه والحدود والفضاء.

ثالثاً: إن الشروع في المفاوضات لا يعني وقف الانتفاضة، التي عليها أن تتواصل بشكلها السلمي الشعبي، البعيد عن «العسكرة»، حتى تتم الاستجابة لمطالبنا المشروعة كاملة، لأن عبقرية الانتفاضة تتمثل في تحييد أسلحة الاحتلال الثقيلة، وفي إبقاء الضغط على ممثلي الدولة العبرية الجالسين مقابل الوفد الفلسطيني، على طاولة المفاوضات.

رابعاً: عدم القبول بتأجيل أية قضية من قضايا الحلّ النهائي على الإطلاق، لخطورة المماطلة والتأجيل والتسويف، أو بسبب استمرار فرض سياسة الأمر الواقع من إسرائيل على الأرض.
خامساً: إيجاد آلية وضمانات أكيدة وقادرة لإجبار إسرائيل على تنفيذ ما سيتم الاتفاق عليه. ولعل هذه النقطة من أهم النقاط، ولا تقل حساسية وحيوية عن باقي المسائل، هذا إذا لم نعتبرها تاج الحكاية كلها.
سادساً: لا تناقض إطلاقاً بين المفاوضات واستمرار الانتفاضة، لأن المفاوضات هي استمرار للمواجهة بطرق أخرى، مثلما يُعتبر المفاوضون الفلسطينيون محصنين وطنياً، ويجب مساندتهم ودعمهم ومباركتهم، ما داموا على جادة الحق والالتزام بالثوابت الوطنية التي تؤسس للحد الأدنى للإجماع الوطني الفلسطيني.
سابعاً: ينبغي ألاّ تحوّلنا هذه المفاوضات إلى أدوات لحفظ أمن إسرائيل مهما كان الثمن!

4. في ذكرى القسّام

تمر اليوم 19/ 11/ 2000 ذكرى استشهاد المجاهد الشيخ عزّ الدين القسّام -والانتفاضة في كامل ألقها- الذي قضى في وادي السريّس ببلدة يعبد، جنوب جنين العام1935، بعد معركة شرسة مع قوات الانتداب البريطاني، شهدها الوادي، لتكشف الستار من جديد، عن حياة واحد من أهم وأبرز قادة الثورة الفلسطينية، في إرهاصاتها الأولى، حتى أننا نعتبره أباً للثورة المسلحة، ووالداً شرعياً لكل ما توالد في فلسطين، من

ثورات وانتفاضات . . حتى الساعة، للاعتبارت والأسباب التالية:
أولاً: استطاع القسّام أن يكسر فكرة الإقليمية الوطنية مبكراً، على طريق تأكيد دعوته، التي تقف على مفهوم «الأمة الواحدة»، ما يفسر اشتراكه في محاربة الفرنسيين في سوريا، والانتداب البريطاني والعصابات الصهيونية في فلسطين، بعزيمة وبسالة.
ثانياً: أنزل شيخُنا الجليل فكرة الجهاد من النص الغيبي العام إلى أرض الممارسة والواقع، ولم يكتف بالدعوة اللفظية، بقدر ما جعل الجهاد دعوة ملموسة، تعطي أُكلها ما يشكل تحدياً للجماعات الإسلامية التي تدعو إلى الجهاد، علّها تسبر غور تجربة هذا الداعية العملي.
ثالثاً: قدم القسّام الدعوة الإسلامية بشكل معاصر، حيوي ومرن، آخذاً بعين الاعتبار كل المعطيات المعاصرة والإحداثيات المعيشة، واستطاع هو ورفاقه والمجاهدون معه أن يصلوا إلى كل فئات المجتمع، حتى أصبحت دعوته مظلة واسعة، انضوت تحتها جماعات أخرى، أي لم يَسِم ثورته بأفق ضيق، ولم يكن جميع مَنْ سار مَعه من المتعبّدين.
رابعاً: تميّزت حركة القسّام بقوة التنظيم والعمل، حيث وضعت شروطاً ومواصفات للثورة والثائر، حيث لم يقبل، في صفوفه، إلا كل مَنْ خضع للتجربة والمراقبة، ضمن إطار تنظيمي مُسيّس، ولديه قدرة على التحليل، ووجهة بوصلته محددة نحو العدو المركزي.
ثم إنّ القسّام في التجائه إلى الريف الفلسطيني دون إهماله المدينة، أعطى طابعاً شعبياً واسعاً لحركته الثورية.
خامساً: لم تكن ثقافة القسّام الدينية العميقة مبنية على الخرافات والأوهام، بل كانت لديه قدرة على الاجتهاد، مثلما لديه خبرة ميدانية

صاحبته منذ جهاده الأول ضد الفرنسيين في سوريا، كما أنه كان من دعاة الوحدة وممارسيها، ولم تكن حركته منكفئة على مجموعة محددة أو منــزوية في مربع ذي لون ما، بل وضع ذراعه في سواعد القوى الأخرى، التي كانت تناطح الانتداب والعصابات.

إن استشهاد عزّ الدين القسّام لم يوقف ثورته، بقدر ما كان استشهاده سبباً آخر لتفجير الثورة وتصاعدها حتى كانت ذروتها تتمثل في ثورة 1936.

لقد كان القسّام يزاوج بين ما يقوله على المنبر وما يفعله في الوديان والجبال. ومواصلة جهاده جعلته يسبق تلك النماذج اللاتينية الثورية التي تم اتخاذها قبلة للنقاء الثوري من جيفارا وساندينو وزاباتا وانتهاء بأنتونيو غومز، وفرابندومارتي.

إن توقّفنا أمام ذكرى القسام يعني تنبيه أشقائنا في الفصائل الإسلامية للاحتذاء بهذا الرجل، وبثورته.

5. روح الانتفاضة .. نص الدولة

لا يختلف اثنان على أن شعبنا قد خرج، للمرة الألف، في انتفاضة جديدة، للتعبير عن رغبة حاسمة، جوهرها الخلاص من الاحتلال والمستعمرين، وما يمثله هذا الاستلاب، من موات ومهانة وعدمية! غير أن ثمة أسباباً جوهرية أخرى وقفت بحزم، وساهمت مباشرة، في دفع الناس للانتفاض، لعل أهمها هنا كان التعبير عن رفض هوامش الخطأ الجوّاني، والمناداة لتأسيس مجتمع مدني نموذجي، لا تشوبه أمراض

الحكم العشائري، أو النظام الشمولي. وأهم ما تحفره الانتفاضة في وعينا، إضافة إلى الإنجازات الوطنية والسياسية، قدرتها على تأسيس الوعي النقدي، كأرضية خصبة للتعددية والحوار والتأصيل. ومن هنا فإن المطلوب، أولاً، وقبل كل شيء - عدا الإفادة السياسية وقطف ثمار الانتفاضة على المستوى السيادي، والتخلص من الاحتلال، وإعلان الدولة والعاصمة والعودة- هو أن تكون قيم الانتفاضة وروحها، والمبادئ التي كرّستها المواد التي تشكل دستور الدولة الفلسطينية، ونصّ النظام الذي سيحكم هذه الدولة، بمعنى ألا تكون هذه القيم والروح طارئة أو موسمية، بل أن تظل الوحدة الوطنية المجسمة، الآن، قائمة وتنهض وتتواصل على قواعد يتم تثبيتها وتمتينها وتقنينها. وكذلك استنهاض القوى الكامنة في المواطن والتجمعات والمؤسسات، وإبقاء هذه العلاقة المضيئة بين السلطة/ النظام والشارع الفلسطيني، جنباً إلى جنب مع التكافل الاجتماعي، وتحديد الأولويات، ووضوح الهدف والبرنامج.. وفوق كل ذلك، الحرص على مساحة النقد الشجاع المسؤول، وتصحيح المسيرة.

إنني أعني، بالتأكيد، أن تظل الانتفاضة، كفعل للتجاوز والإبداع، فعلاً دائماً، وهاجساً لا ينبتّ، وهدفاً بحد ذاته، يتخلص من كل المهابط وعوامل التثبيط، يسعى لاستفزاز روح الاشتعال والنماء والعافية، وعلى كل المستويات. أي أن يكون، مع مطلع كل نهار جديد، روحاً جديدةً، أو انتفاضة جديدة، يتجدد عزمها، وتتصل أمواجها، ساعة إثر أخرى، إلى كل بناءات مجتمعنا، لتكون الانتفاضة حقاً، فعل تغيير شاملاً، لا يتوقف.

والفعل الشامل يقضي بعدم تمجيد صورة أو بعُد واحد للانتفاضة مثلما يعني عدم الركون إلى شكل واحد للتغيير، لأن الاقتصار على شكلٍ أو كيفية واحدة، يتنافى مع جدلية البناء، والنضال والتجاوز.

ومن الطبيعيّ أن تبرز بعض القوى والمصالح، التي ستشد الشمس إلى غروبها قبل أن تشرق - ما يؤكد حيوية الوحدة وجدواها، واستنهاض القوى الكامنة، والنقد الدائم - حتى لا تحقق الانتفاضة سوى الشرط السياسي الآني، والمطلب المرحلي، الذي سينهار، إذا لم يتم تدعيمه، بمفاهيم الانتفاضة وقيمها وروحها وأخلاقها.

ومن الطبيعي، أيضاً، أن نتناول كل ذلك، بأدوات ولغة جديدة، وبشرط أن تصل رياح الانتفاضة إلى كل الجهات، لتصيب مباشرة كل مناحي حياتنا، من ألفها إلى يائها، ومن دون استثناء!

6. تمجيد الموت

ثمة خطاب كالطوفان، لا يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه، وهو خطاب تمجيد الموت! وبالتأكيد فنحن جميعنا مع تمجيد الشهادة لشحذ الأرواح، التي جعلت ليل المحتلين جحيماً، ونهارهم رعباً.

وربما لا يختلف اثنان على أن الموت البطولي هو الثمن الذي لا بدّ من تقديمه، حتى نقطع جسر الهلاك، ونصل إلى بر الاستقلال والكرامة، لكننّا نبالغ ونتساهل مع الموت، كأنه شيء «طبيعي»، وأن سقوط عدد كبير من الشهداء مسألة مفروغ منها، و«عادية» جداً. وهنا أعترض، وأرفع صوتي ضد التعبئة غير المحسوبة، والانفعالية الغليظة، التي تجعل

الشهادة أقرب ما تكون إلى الموت المجاني، لأنه بإمكاننا ترشيده، والإفادة منه أكثر!! بمعنى أنه إذا كان لا بد من الموت يجب أن نموت، شرط أن يكون موتنا باهظاً لمن يقتلوننا، لأن الهدف ليس أن نموت، بالطبع، بقدر ما نحقق أهدافنا الوطنية والسياسية، وفي درب تحقيق الأهداف، لا بد من سقوط الشهداء والجرحى، ودفع الثمن الباهظ المطلوب.

والبطولة ليست في أن «نموت» فحَسب، بل إن جوهر البطولة يتمثل في أن نوقع موت كثيرين في صفوف العدو، حتى نضغط، بكل ما أوتينا من قوة، على عصب نخاعه الشوكي، لعله يستفيق، ويستجيب لنداء الشرعية الدولية والسلام العادل. ولأن البطولة، أيضاً، تتركز في التقليل، ما أمكن، من خسائرنا البشرية، ومقدراتنا وإنجازاتنا.

وينبغي، هنا، أن ندرك جيداً أننا «لا» نُقدّم الشهداء، بل إننا نخسرهم، ويجب أن نشعر بهذه الخسارة المفجعة والقاسية والمؤلمة جداً، لأن الفرح بالشهيد لا يعني أكثر من بهجة الزفاف الصعب، واجب الوجود، لكنها ليست فرحة المازوخيين، الذين ينتشون بالسياط، أو فرحة المهزومين الذين يطيب لهم أن يجلدوا أنفسهم، ويمزقوا ثيابهم للتعبير عن عقدة الاضطهاد أو التسليم، ورفع الراية البيضاء، لأن فلسطين لم تعتد إلا أن ترفع ألوان الراية كاملة، وبرسوخ أكيد، فوق القمم والأسوار. وأعتقد أن ثمة ثلاثة أسباب رئيسة لهذا الهياج المقدس، وهذا الاندفاع الخارق للشهادة، والذي يفسر سقوط هذا العدد الكبير من الشهداء والجرحى، وهي:

أولاً: التعبئة الفلسطينية المتكررة والمتواصلة، والتي هي تعبئة عامّة، غير محددة وغير مقننة، والتي يتم تقديمها بغير طريقة، حتى بات «خيار» الموت هو المتبقي كطريق للخلاص.

ثانياً: إجراءات الاحتلال الإسرائيلي القمعية والمُذلة والهمجية، والتي لم تترك، بالفعل، للإنسان الفلسطيني إلاّ طريقاً واحداً هو الانفجار، للتخلص من العبودية، ومن محاولات تحطيمه وإذلاله واستلابه.

ثالثاً: الرد الدموي لآلة الفتك الاحتلالي، والتي تحصد الأرواح، بدم بارد، وتقصف البيوت والمواطنين، بساديّة مرضية، وتطلق عنان المدافع والرشاشات العمياء في وجه الشعب الأعزل.

وبقدر ما يزداد قتلاهم، بقدر ما نقترب من الدولة والقدس والعودة، وليس بعدد شهدائنا، فقط، نحقق ذلك! رغم رفضنا المبدئي لموت أي إنسان، لكنّ الاحتلال هو الذي يتحمّل مسؤولية سقوط كل نقطة دم أو دمع، هنا أو هناك.

7. تأهيل السلاح .. أولاً

الانتماء الباسل، والاعتقاد الراسخ، والجسارة الفذة، هي ما يدفع الشبان الفلسطينيين إلى توظيف أسلحتهم الأوتوماتيكية الخفيفة، لمناطحة المستوطنات المدججة بالسواتر الغليظة، والمدافع المُهلكة، كرد فعل طبيعي، على ما تقترفه دولة الاحتلال من قتل سافر، لم تصل مذبحة في التاريخ، ببشاعتها، إلى ما وصل إليه هذا الفتك الاحتلالي المتواصل، الأمر الذي يوقع هذا العدد الكبير والعزيز من الشهداء والجرحى، والذين تبرز جثامينهم ما تفعله القنابل والصواريخ والمدافع، من تمثيل ممض ومرعب فيها، وصلت، في أغلب الأحيان، إلى تقطيع الجسد إلى أشلاء، أو تهشيم الرأس، أو طحن الأطراف، أو تنخيل الصدر، أو تمزيق الجذع حتى الذوبان.

وهنا تبرز مسألة ينبغي التوقف أمامها ملياً، وهي مدى إحاطة هؤلاء الشبان الأبطال بالمهنية، والتدريب الكافي، والتأهيل اللازم! بمعنى أنه ينبغي على كل مَن يْحمل السلاح أن يكون قادراً، تمام القدرة، ومؤهلاً بما يكفي، وعالماً بأحوال السلاح، وكيفية استخدامه، زمانياً ومكانياً، ومدركاً لما يتمتع به عدوه من أسلحة، وماهية قدراتها وإمكاناتها، وأن يكون ملماً بأشكال حرب العصابات وحرب الشوارع، وما إلى ذلك، حتى يكون سلاحه الرشيق نافذاً وذا فائدة، وتكون كل رصاصة في مكانها، وحتى لا يُمسي إطلاق الرصاص الليلي، من بين البيوت، على المواقع الاحتلالية أشبه ما يكون بـ «الطخطخة العشائرية» أو «الاستعراض» أو «طخ الأعراس»، وتكون النتيجة وقوع عدد جديد غال من الجثث، ومزق اللحم، والأطراف المنخورة، ومن دون فائدة تذكرً!

وأعتقد أن ثمة مسؤولية كبيرة ومباشرة تتحملها الأجهزة المسؤولة، والمؤسسات المعنيّة، والتنظيمات والفصائل جميعها في هذا الشأن، بحيث ينبغي أن تضع، وبشكل ملزم، الضوابط المانعة أمام الانفعال والحماس اللذين لا يكفيان في مثل هذه الحالات، على طريق وضع الأطر والخطط اللازمة، لتوظيف الأسلحة، بعلميّة ووعي ومسؤولية وإدراك، وأن لا يسمح، لأي كان، بالتمنطق بالسلاح، وإطلاق الرصاص على عواهنه، دون حساب دقيق، في المكان والزمان المناسبين.

إن رصاصة واحدة يقف خلفها فلسطيني ذو خبرة ودربة، يطلقها مستعيناً بتقنيات السلاح المعاصر والمتطور في الوقت المناسب ومن الزاوية المحددة ستكون، بالتأكيد، أفضل من إطلاق مليون رصاصة مجانية في الهواء!

ربما، يكون مناسباً، هنا، أن نشير إلى أهمية تنظيم دورات تأهيل وتدريب لجيل معين من كل أبناء شعبنا، حتى يتم تكريس السلاح الفاعل والمسؤول واجهة مساندة تؤدي دورها في هذه الحرب الطاحنة، التي تديرها الدولة العبرية علينا، والتي ربما تتصاعد، وتدخل في دوامات جديدة، لن ينفع حينها إلا السلاح.. والسلاح، فقط.

ظل أن أشير، أيضاً، إلى آلاف الطلقات النارية التي يتم تبديدها، هكذا دون فائدة في المناسبات، وبالرغم من امتعاض الجميع من هذه الظاهرة، فإن أحداً لم يجرؤ على الصراخ في وجههم: كفى!

8. سرقة الجنازات

عفواً لقسوة العنوان، وبعد،

فثمة ريبة في أمر ما يحدث؟! حيث إن المسألة تبدو كأنها توقفت عند حدود تصنيف الشهيد وانتمائه الحزبي، فترى الفصائل والأحزاب والتنظيمات تتسابق في مارثون الادعاء بأن الذي سقط مضرجاً بدمه هو من هذا الفصيل، وليس من ذاك التنظيم، ويواكب ذلك أن الفصيل هذا يسرع في توزيع أعلامه وراياته ولافتاته على المشيّعين، ليوحي بأن الشهيد عنصر من عناصره، ولا دخل لباقي التنظيمات فيه، ولا يحق لهم مقاسمته دمه!

هل ثمة قسوة أكثر من هذه؟ خصوصاً أن الكثير من الشهداء، لم يكونوا، أصلاً، في أي تنظيم أو جبهة أو حركة، ثم أن الشهيد يؤدي واجبه المقدس مدفوعاً بعقيدته وضميره وغضبه، ولم يستشهد من أجل «عيون» هذا التنظيم، أو ذاك الحزب، أو تلك الحركة، أو هذي الجبهة!!

فلماذا تصر هذه التنظيمات على «تلوين» الشهداء بألوانها؟ ولماذا يلحفون في «تقزيم» الشهداء و«حشرهم» في خانات التنافس الحزبي؟ ولماذا يقتسمون لحم الموتى، وحفظه في ثلاجات مكاتبهم الفصائلية؟ هل هناك إساءة أكثر من هذه للشهداء؟

بل إن بعض الفصائل أعدت ملصقاً ضم أكثر من ثمانين شهيداً، وكان الملصق معنوناً بـ«شهدائنا»، ما يعني أن باقي الشهداء ليسوا شهداء، من وجهة نظر ذاكَ الفصيل!! وإلا فما معنى ذلك؟ ولماذا تقسيم هذا «الميراث»، وفي هذه الظروف التي نحن أحوج ما نكون فيها إلى الوحدة الوطنية؟! حتى أن الكثير من الشهداء، وقبل أن يواروا الثرى، تنازعتهم الفصائل، حيث نرى أن التنظيم «الفلاني» نعاهم، والتنظيم «العلاني» تبنّاهم؟ فإلى متى تستمر هذه «المسرحية» المفتعلة، الهابطة، المسيئة وثقيلة الظلّ؟

أيها الأخوة، أيها الرفاق، في كل الفصائل والتنظيمات والحركات والأحزاب والجبهات: إن الشهداء أكرم منّا ومنكم جميعاً، والشهداء أكبر من كل الألوان والألسنة والادعاءات، والشهداء فوق الجميع، وأعلى من سكاكين «اقتسام» الكعكة السامة، والشهداء ورثة الأنبياء لا تجوز ملكيتهم أو وضعهم في «جيب» هذا أو ذاك، والشهداء في قبورهم يجوحون ويبكون ألماً، كلما رأوا هذا المشهد المكرور الممجوج الذي يشظّي أجسادهم، ويصبغ دمهم بلون باهت كريه، فاتقوا الله في أنفسكم، وفي الناس البسطاء، وفي الشهداء الأكرمين.

9. الهُذلي الفلسطيني

كلّما امتلأت جرّة التاريخ بالعندم وحبّات الجمر، فاضت فلسطين بالزنابق الحمراء والمواقد الماسية.

ولعلّ التاريخ في توقفه أمام نماذج محددة، إنما يؤكد تميّز هذا النموذج واستثنائيته ومهابته وغير عاديته، وربما ليكون مثالاً يُحتذى، للناس أجمعين، وعلى مرّ التاريخ.

ولم يفلت منهاج مدرسي واحد من «لعبة النموذج» حتى يتم تأصيل مدارك الأطفال، وتعبئة صدور الأجيال الطالعة، لتكون تلك النماذج قدوتها في الحياة.

وفي حالتنا العربية، ثمة الكثير من الأسماء الحُسنى التي شغلت الدنيا والناس، وكانت، بالفعل، شمساً أخرى في نهار العرب والمسلمين، أو نجمة كبيرة وهّاجة في ليل أمتنا الممتدة بعيداً في التاريخ، ولكم تغنّينا بهذه النماذج التي حرست أحلامنا وأضاءت جنبات ليالينا بأفعالها المحمودة، واختراقها الرتابة أو المتوقع.

ومن هذه النماذج، على سبيل المثال، أبو ذؤيب الهذلي الذي فقد أبناءه الخمسة الذين كانوا يجاهدون في ركائب الفتوحات الرسولية، وكذلك الخنساء التي فقدت الولد والشقيق، وغيرهما كجعفر الطيار الذي لاقى ربه مجاهداً شهيداً، بعد ساعات من زواجه، حتى لم يمهله منادي الجهاد ليغتسل من ماء الشهوة.

وأكاد، دون مبالغة، أجد معادلاً موضوعياً في فلسطين لكل تلك النماذج، حتى أنّ النماذج الأمية التي وقف العالم مشدوهاً أمام

صمودها، نجد العشرات مثلها، هنا في فلسطين، وأعني، بالطبع، البطل الأسطوري صديق شعبنا نلسون منديلا.

وقد لا نجد عنتاً أو تعباً في إيجاد «أبي ذؤيب الهذلي» الفلسطيني أو «الخنساء» الفلسطينية، أو جعفر الطيار الفلسطيني، أو مانديلا الفلسطيني، أو جيفارا، أو جياب أو غيرهم الكثير. بل قد نجد أكثر من مئة خنساء في فلسطين، وأكثر من عشرين أبي ذؤيب وأكثر من ألف جعفر، هنا، على هذه الأرض، مثلما نجد في كل قرية مانديلا. لكنّ العالم لا يرى إلا ما يريد، منطلقاً من مصالحه، ولا يرغب في أن يعترف بأن فلسطين قادرة دائماً على اجتراح المعجزات وولادة الخارقين.

وثمة مسؤولية هائلة على أكتافنا، تبدأ من تأصيل تاريخنا النضالي، مروراً بحفظ هذه الذاكرة المطهمة بالدم والعرق والقيود، وانتهاءً بإعلاء هذه النماذج وتثبيتها في أدبياتنا وأغانينا ومنهاجنا المدرسي ومساقاتنا الجامعية، لا لكي نتمايز عن الناس، ونقلب شفتينا، غروراً بما لدينا من بطولات! ولكن ليعلم التاريخ كم كان مُبهظاً وظالماً هذا الاحتلال، الذي أفاد من كل أشكال القمع عبر التاريخ، وأعاد إنتاجها على لحمنا وروحنا، ونوافذنا التي نحاول أن نُبقيها مفتوحة لنرى الشمس الآتية.. لا محالة.

10. أسئلة الثقافة وشروط المقاومة

الثقافة بدعامتيها المادية والروحية هي في محصلة الأمر تلك المعايير التي نجابه بها الجديد والطارئ والغريب. بمعنى أن الثقافة تعطينا الميزان الذي نقيس به الصواب والخطأ، الأخلاقي وغير الأخلاقي، النافع والضار.

هذا الميزان المنصوب دائماً أمام أعيننا لا يصوغه نتاج النخبة، ولا معايير أخرى مستوردة، ولا معايير مفروضة، ولا ما يستحسنه البشر. هذا الميزان هو ما يعكس روح الجماعة أو خيرها الجمعي أو ما راكمه نشاط تلك الجماعة في مكانها وزمانها، وعلاقاتها، بعضها ببعض، أو علاقاتها بغيرها من الجماعات، مضافاً إلى ذلك ما يمنحه الدين أو يفرضه أو يقبله أو يرفضه. الدين نزعة حقيقية لكل جماعة، الغريزة الدينية أو الدافعية الدينية هي أحد الدوافع التي تم السكوت عنها في أبحاث السسيولوجيين والمفكرين في خضم ثلاثة قرون من الفكر الغربي الذي استبعد كل ما لا يدخل المختبر أو يقيسه الباروميتر.

الثقافة إذاً، بدعامتيها الروحية والمادية، هي الأنماط الذهنية والوجدانية والسلوكية التي تم تثبيتها خلال الزمن، فصارت إلى حد ما مطلقة، نهائية، مقدسة، صارت جزءاً من التكوين الروحي والنفسيً والتعريف الكلي للوجود وهدفه وأسلوب ممارسة ذلك الوجود وشكلها. وكلما كانت تلك الأنماط الثقافية داخلية كانت عصية على التغيير أو التغير أو المناقشة أو إعادة المناقشة، ولهذا يمكن للمرء أن يغير ملابسه أو أدوات منزله، ولكن من الصعب عليه أن يغير معتقداً يؤمن به.

نقول هذا الكلام لنخلص إلى القول: إن الثقافة بمفهومها الواسع، الحضاري المدني، التاريخي العريض، هي الهوية الحقيقية للمرء وللجماعة، يواجهُ بها المعضلات، وتُتقى بها الأزمات. وكلما كانت هذه الثقافة واسعة، مرنة، ذات منظور عميق وممتد، وتملك إجابات وردوداً كافية ومقنعة وذات تأثير، استطاعت الصمود والمقاومة والصعود.

قوة الثقافة، أية ثقافة، تكمن في قدرتها على المجابهة من جهة، وقدرتها على الحوار وتقديم الإجابات والردود، وسرعة استجابتها للجديد والطارئ والغريب. الثقافة التي ماتت كانت متحجرة، مغلقة، لم تستطع أن تفهم أو تُدرك ما يدور خارجها. ولن ندخل الآن في جدل عقيم حول اندغام الحضارات وتأثيرها، بعضها على البعض الآخر، فإننا قد نميل إلى حديّة شبنغلر الذي أنكر هذا تماماً، وهناك حضارة تسود، وهناك حضارة تموت، والحضارات المتجاورة تتصارع فيما بينها أكثر مما تتبادل المنافع، وللدقة أكثر، هناك حضارة قوية ذات إشعاع، وهناك حضارة أقل قوة تستقبل الإشعاع. القوي يفرض، أو يحاول فرض أسلوب قوته ولغة قوته وفن قوته. كان هيغل تعبيراً عن قوة نابليون، وكان داروين تعبيراً عن استعمارية حكومة جلالتها، تماماً كما هو رامبو تعبير عن فظاظة الإمبريالية وشراستها، كما كان ابن عربي تعبيراً عن وصول «التأويلية» في الإسلام إلى الدرجة الأخيرة في سلم الحفر تحت معنى الألوهية، ولهذا فإن قوة الثقافة تدفعها إلى فرض رموزها وتعميقها بالإقناع والحوار، كما فعلت الحضارة العربية الإسلامية، أو بالجبر والإكراه، كما فعلت الحضارات الأخرى.

هذا الكلام النظري لا يعفينا من السؤال: ما هي مقومات ثقافتنا؟! هل يمكن الكلام عن ثقافة خاصة بنا؟! هل هناك وحدة مصطلح ووحدة مفهوم لهذه الثقافة؟! هل يمكن الحديث عن ثقافة متعددة إلى ثقافة واحدة؟! وأخيراً هل هناك ثقافة عربية إسلامية يتفق عليها الجميع؟! وفي فلسطين؛ ما هي الدوافع الثقافية التي تدفعنا إلى البقاء والصمود والمقاومة؟! هذه الأسئلة لا نندفع إليها بفعل هزيمة النظام العربي فقط،

فقد طُرحت هذه الأسئلة، أيضاً، في أوج قوة الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن الحضارات القوية تطرح أسئلتها دائماً، ودائماً هي مستثارة، ودائماً هي محرضة، قادرة على مناقشة ذاتها. هذا هو قدر الحضارات العظيمة، وإذا توقفت أية ثقافة عن طرح الأسئلة فإنها تموت عملياً.

الأسئلة الآنفة الذكر، نطرحها الآن، لأن هناك شرذمة حقيقية في تعريف الوجهة الحضارية للمجتمعات العربية والشعوب الإسلامية، هناك إسلام متعدد، وهناك عروبة متعددة، وهناك تجارب علمانية مختلفة كل الاختلاف، وهناك تجارب إسلامية منغلقة كل الانغلاق، وهناك تغريب وغربة، وهناك تطرّف وطرافة، إن شئت، والأهم من كل هذا، هناك تراكمات طويلة وعميقة من الرؤى والاجتهادات المختلفة والمتناقضة للإسلام الأول، بحيث أثمرت اليوم أشكالاً وأحزاباً وحركات قد تبدو غير مفهومة، أو تبدو تثير الاستغراب. نقول ذلك بعد أن أدى فهم معين للإسلام إلى أحضان الخيانة العلنية، وأدى فهم آخر للإسلام إلى الاشتباك مع الغرب اشتباكاً غير متكافئ وهزيمة ساحقة حتى الآن، على الأقل.

ماذا عن الفلسطينيين إذاً؟! هل هناك أزمة على هذا المستوى؟! وما هي المفاعيل الثقافية التي تلعب الدور الأكبر في إذكاء نار المقاومة، والتصدي لهذا العدو الذي يشكل التقطير الأخير للفكر الغربي، مضافاً إليه العقد والأوهام والأمراض التاريخية التي يجرها ويحملها شعب يعتقد أنه أفضل شعوب الأرض!!

في فلسطين، تجري حقاً مواجهة بين عالمين مختلفين، من جهة، هناك

العرب والمسلمون الذين يمثلون ثقافة عريضة وغنية وقديمة تعودت التسامح والحوار والوضوح والتعدد، في منطقة تعودت الموزاييك العقدي والعرقي منذ فجر التاريخ، وهناك المحتل الإسرائيلي اليهودي الذي يمثل ثقافة قديمة صاغتها الهواجس والأحلام، تعودت تقديس الجماعة وروح الأسلاف، ورأت العالم مقسوماً دون تساو أو تسامح، لا تعترف بالصوت الآخر إلاّ من حيث إمكانية استغلاله أو استخدامه. ثقافتان مختلفتان كل الاختلاف، حتى فكرة الإله الواحد، ثم الخلاف بشأنها إلى أبعد الحدود، فإذا كان الله في ثقافة هذه المنطقة هو الإله الواحد المطلق، القادر، الرحيم، الذي لا يفرق بين البشر، ويغفر لجميع البشر، نجد الإله لدى المحتل اليهودي ليس إلهاً للجميع ولا يغفر للجميع، وينحاز إلى إنسان معين ومكان معين.

ولأسباب تاريخية وحضارية نتجاوزها الآن لضيق الوقت، تم تبني المفهوم اليهودي للمسيحية في الغرب، بحيث أصبحت الليبرالية الغربية في أفضل حالاتها غير بعيدة عن ذلك المركب الغريب والخلط العجيب بين المسيحية الغربية واليهودية المشرقية، بحيث تحول اليهودي من ملعون ومطارد إلى رجل مبارك يضيف إلى العالم ما لا يستطيع أحد أن يضيفه، ومن عجب أن يخرج اليهودي من «الغيتو» في المدينة ليحكم المدينة الغربية من خلال دوائر صنع أهم القرارات فيها، إلى الدرجة التي ذكرت فيها كتب التاريخ أن بابوات مشهورين جاءوا من «الغيتو» هذا.

وعلى هذا، فإن تبني الغرب إسرائيل لم يأت، فقط، من منطلق المصالح والدور الوظيفي الذي ستلعبه إسرائيل، وهذا منطق صحيح، ولكن بسبب العقيدة، أيضاً، وهذا ما يتم إخفاؤه لأسباب مختلفة لا نخوض

فيها الآن.

ثقافة المحتلّ الإسرائيلي ومن يدعمه ثقافة أرضية، على الرغم من مشرقيتها، ثقافة تُعلي من شأن كل ما يمكن وزنه وقياسه، وهي ثقافة حسّية لا تتحدث عن العالم الآخر، وهي ثقافة كابوسية يُترك فيها المرء وحده، أمام لاوعيه تماماً، وهي ثقافة ماضوية الأسلاف، هم الأبطال والأحفاد، هم العصاة الذين سيحلّ عليهم غضب الربّ.

الفلسطينيون الذين طاردهم الذبح والقتل منذ ما يزيد على قرن مجبرون على المعرفة كأحد أشكال المقاومة، ومجبرون على الالتجاء إلى ما تمنحهم إياه ثقافتهم من أنماط القوة فيها، كالشهادة والتضحية والالتزام والانتماء، ومجبرون على عدم طرح الأسئلة التي تفرق، والالتفاف حول الإجابات التي تجمع، وقد يكون من دواعي الفخر أن يكون الإسلام السني في فلسطين يقدم أروع النماذج للعالم العربي والإسلامي كلّه في مقاومة الاحتلال. والفلسطينيون مجبرون على فهم ثقافتهم من مدخلها القوي والناصع، فالنصر لا تصنعه المقولات الرخوة والغامضة، بقدر ما تصنعه المقولات التي تقدم الجزاء.

الفلسطينيون الذين يمارسون حياتهم على هذه الأرض وفي المنافي، الذين يمثلون ثقافة العرب والمسلمين في هذه الألفية الثالثة، مجبرون على مقاومة المحتلّ وثقافته بالالتجاء إلى ثقافتهم التي تمنحهم قوة الفعل وأخذ المبادرة من جهة، وتمنحهم، أيضاً، الشعور بالرضا والاكتفاء بسبب ذلك الفعل. الثقافة القوية هي التي تعطي هذا الإحساس للمنتمين إليها.

بعد 11 أيلول 2001، من الضـروري الإشارة إلى عدم الانجرار وراء ما يطرح من أقوال باتت غير ذات ضرورة، من أمثال أن الإسلام وسطي،

أو أن الإسلام يحارب الإرهاب، وأنه يتقبل الآخر ولا يرفضه، على صحة كل ذلك، ولكن لماذا لا يقال، أيضاً، مثلاً، إن الإسلام هو دين العدل وهو دين القوة. وإن العدل في الإسلام درجة يُقفز منها إلى الرحمة، وإن الرحمة أوسع من العدل. لماذا لا يقال إن الإسلام هُزم أكثر من ثلاثة قرون متوالية، وإن الشعوب العربية الإسلامية انتُهكت ونُهبت وشُردت وسُلبت مدة قرون ثلاثة، لماذا لا يُقال إن أول استعمار للبلاد العربية والإسلامية بدأ أوائل القرن التاسع عشر ولم ينته حتى الآن، لماذا لا يُقال إن الإسلام واضح كل الوضوح في القضايا الخلافية، ولماذا لا يُقال إن الغرب يسعى دائماً إلى تجريد العرب والمسلمين من سلاحهم في كل مناطق التوتر، ولماذا لا يُقال إن الغرب يسعى دائماً إلى حشر العرب والمسلمين لفهم واحد ووحيد للثقافة العربية والإسلامية. ولماذا لا يقال إن التجارب الأخرى التي يطلق عليها التجارب العلمانية والليبرالية لم تؤد إلى توفير الكرامة والحرية والاستقلال والتنمية للشعوب العربية والإسلامية؟ ولماذا لا يقال إن الشعوب العربية الإسلامية مهانة ومذلّة ومستلَبة على كل الأصعدة؟! ولماذا لا يُقال إن الغرب يعيش ويحيا على أنقاض عالمنا العربي والإسلامي وخيراته؟! وإنّ الغرب هو مصدر الحركات الإرهابية والعنصرية، وإن الإسلام أبعد ما يكون عن ذلك؟! لماذا لا يُقال إن فهمنا ثقافتنا وعروبتنا فهم منقوص وخاطئ وغير فاعل حتى نبقى مهزومين حتى على مستوى اللغة. إن تصريح وزير الخارجية القطري الأخير الذي أطلقه في أمريكا، ومفاده أنه يجب أن نتوسل أمريكا لتحلّ قضايانا، هو التعبير الأكثر انحطاطاً عن هذه الظاهرة.

الفلسطينيون هنا، على هذه الأرض، يقدمون الثقافة العربية والإسلامية

بأبهى صورها، كيف ذلك؟! إنهم ببساطة يعتقدون أن عناصر ثقافتهم الداخلية والخارجية من القوة، بحيث تتم التضحية بالنفس من أجل كرامة الإنسان وكرامة الأرض، وبحيث يتم ذلك بأقصى درجات الرضا والاكتفاء.

الأمر الأخير، الذي أريد أن أشير إليه، هو ذلك النتاج النخبوي الثقافي من قصة ورواية وشعر ورسم وغناء، فهو تفريغ لجذور أعمق وأعرض، وهذا النتاج النخبوي ليس كل الصورة وإنما جزء منها، فقصيدة الشعر لا يتم الاعتراف بها إلا بمقدار اقترابها من ذلك الجذر العميق وفهمها إياه، ومن هنا، فإن العقلية الجمعية أسقطت من ذاكرتها ملايين قصائد الشعر التي قيلت، ولم تبق إلا قصائد قليلة عبّرت واعترفت بالجذر العميق، وكانت ابنة شرعية له وبرعماً صغيراً استمدت النسغ منه.

النتاج النخبوي الثقافي، الرسمي والمعارض، المقبول والمسكوت عنه، هو تفاصيل لعنوان كبير، والجماعة لا تعترف بمن يخالفها، وتسقط من حسابها من يسقطها من حسابه، ولهذا فإن مقاومة المحتل وثقافته لا تتم من خلال نتاج ثقافي غامض، مطاط، يستبدل الأدنى بالذي هو خير، أو نتاج يتنكر لما مضى بما هو حاضر، أو ذلك النتاج الذي ينبهر أو يدعي أو يتضامن أو يخضع أو يدعو إلى ما لا تدعو إليه الجماعة.

ثقافة أية جماعة هي آلة ماصّة تعيد كل نتاج إلى نمط معروف تراكم بفعل الوحي أو بفعل الزمن، فإذا كان هذا النتاج لا يقبل الأنماط المعروفة يتم رفضه إلى أبد الآبدين، وعندما ينسفح الدم في الشوارع بكل هذه الوحشية وهذه العبثية، فإن أعلى أنماط الثقافة وأصدقها وأنصعها هو ذلك الشاب المضطرم بالأنفة والجسارة والألق، الذي يرمي قلبه في كأس النار والنحاس ليستبدل به حوصلة طير أخضر.

11. المطلوب من المثقفين

منذ أخرجت حكومة الاحتلال العسكرية إلى العلن الحرب التي تشنها على الشعب الفلسطيني، مستخدمة في ذلك كل ما تمتلكه من أسلحة القتل والدمار والإبادة، فإن الروح العنصرية التي تقود هذه الحكومة وأذرعتها من مستوطنين وجنود وسياسيين متطرفين ومهنيي إجرام، تسببت، حتى الآن، في قتل مئات الفلسطينيين وعشرات الآلاف من الجرحى والمعاقين وتدمير البنى الاقتصادية وشروط الحياة العادية للشعب الفلسطيني، عبر سياسات الإغلاق والحصار وقطع الطرق وزرع حياة الشعب الفلسطيني بالحواجز والموت والتجويع.
إن سياسة المجزرة هذه تتم تحت سمع العالم وبصره، في ظاهرة هي الوحيدة في هذا الكون وهذا العالم، حيث تقوم دولة محتلة ومدججة بآلة القتل والنفي بتنظيم مجزرة طويلة الأمد ضد شعب أعزل يطالب بحريته واستقلاله وممارسة عاديته، مجزرة تعلن يومياً بسبق إصرار وترصد وبدم بارد، فمن عمليات الاغتيال حسب قوائم معلنة وأخرى سرّية، إلى تهديم بيوت الناس وترويع الأطفال، والنساء والشيوخ. وما ظاهرة المستوطنين الفاشيين الذين يجوبون شوارع البلدات وساحات المدارس، إلا دليل واضح على سياسة العزل والإلغاء التي تنفذها حكومة الاحتلال.
هذه الحرب الشاملة طالت، ليس فقط، أبناء الشعب الفلسطيني، بل المؤسسات الثقافية والإعلامية والتربوية والمراكز في غير مكان في العالم. حدث ذلك دون أن يبذل العالم الصامت ومؤسساته الإنسانية جهداً حقيقياً وجدياً لوقف هذه المجزرة.

إن المثقفين العرب والمثقفين في كل مكان مطالبون برفع الصوت عالياً ومدوياً في المنظمة الدولية وغيرها، بإعلان موقف حاسم وواضح ضد ما يجري لشعبنا من إبادة على مدار الشهور الأخيرة، إذ لم تعد المناشدة اللفظية والنداءات الخجولة كافيةً أمام بلاغة الدم الذي يكتب الوجع الفلسطيني على الحواجز وفي الأزقة والشوارع والمزارع والساحات.

أما نحن أبناء هذا الشعب من مثقفين ومبدعين وأكاديميين وفنانين، وفي كافة القطاعات ومختلف الأماكن، نصرّ على سبيل تحقيق شروطنا في إقامة دولتنا الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وعودة اللاجئين، وإزالة المستوطنات.

نصرّ على الحياة وممارسة حقنا فيها أسوة بشعوب الأرض، كما أن المثقفين الإسرائيليين - الذين يدّعون التقدمية واليسارية - مطالبون بالوقوف الحاسم أمام سياسة حكومتهم المجرمة التي يقودها مجرم حرب، وعليهم الخروج من صمتهم لفضح ممارسات حكومتهم الاحتلالية تجاه شعبنا وبلادنا المنهوبة، مؤكّدين أنّه لا أمن ولا استقرار في هذه المنطقة ولشعوبها ما لم يحصل الشعب الفلسطيني على كافة حقوقه المشروعة.

إن مواجهة طويلة الأمد محمولة على الوحدة الوطنية وإرادة الصمود والمبادرة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تتوج تضحيات الشعب بالنصر، وهذا يتطلب من جمهور المثقفين الفلسطينيين ما يلي:

أولاً: إعادة بناء المؤسسة الثقافية الفلسطينية، وتوحيد أطرها، وتطوير خططها وفعالياتها.

ثانيا: التنسيق مع المؤسسات الثقافية العربية (الاتحادات والروابط والمراكز الثقافية..)، ومواصلة تحريك الشارع العربي الداعم للانتفاضة بكل

الوسائل المتاحة، وعزل الاتجاهات التطبيعية ودعاتها، وإغلاق الثغرات التي تسلل عبرها الاحتلال نحو العالم العربي ومؤسساته.

ثالثاً: تنظيم الاتصال بالمؤسسات الثقافية الدولية لشرح لفضح القاتل والمحتل الإسرائيلي، وبالمقابل تعزيز صورة المقاوم الفلسطيني وشرعية دفاعه عن نفسه وتكريسها.

رابعاً: دعوة المثقفين الذين يدّعون الديمقراطية في إسرائيل إلى توضيح موقفهم من سياسة القتل والتنكيل التي تمارسها حكومتهم وحاكمهم مجرم الحرب شارون.

إن هذا الاحتجاج لا يتطلب في نظرنا فعاليات وعرائض مشتركة تساوي بين الضحية والجلاد، بقدر ما يفرض عليهم كمثقفين ديمقراطيين مواجهة القاتل الذي يقود حكومتهم والمنطقة إلى الجحيم.

إن وضع هذه المهمات في إطار خطة وطنية ثقافية يتطلب تشكيل لجنة عليا، من مثقفين ومبدعين فلسطينيين وعرب، لإدارة العمل الثقافي، وتحديد أهدافه وأطره وفعالياته بأسرع ما يمكن، فليس ثمة وقت يتم تبديده أو هدره، وليس ثمة مبرر نجده يسوّغ هذا الصمت والغياب للمثقفين العرب الذين نراهن على دورهم وقدراتهم وانتمائهم لأمتنا الواحدة التي ستظل مُستلبة متشظّية ما دام قلبها - فلسطين - مصاباً بوباء الاحتلال، ويواجه وحده السياسات الاستراتيجية الحاسمة لتهويده وتغريبه عن جذورها، ودفعه نحو العدمية والإلغاء.

إن مرور هذه الشهور الصعبة على تواصل الانتفاضة بهذا الصبر والاحتمال يشير إلى قوّة الحياة في الروح الفلسطينية، مثلما يؤكد إصرار شعبنا الفلسطيني على نيل حقوقه الوطنية المشروعة كاملة غير منقوصة،

وستبقى الانتفاضة تتخذ كل الأشكال المناسبة لبقائها وديمومتها، كما ستبقى المنطقة عرضة للانفجار والكراهية والدم، ولن تنعم بالاستقرار والأمن ما لم نحصل على حقنا في الحياة والطمأنينة تحت سقف دولتنا وقدسنا وأهلنا غير منقوصين.

12. الملائكة في جحيم الاحتلال

اعتادت وسائل الإعلام إحصاء ضحايا الحروب بالتركيز على القتلى والجرحى، وتعداد الخسائر المادية والاقتصادية، غير أن هذه العادة لم تكن منصفة في يوم من الأيام؛ لأن ثمة ضحايا غير مباشرين، أو لنقل غير محسوبين في جداول الموتى أو المعاقين، على كثرتهم، وبالتحديد أولئك الذين ما زالوا في إطلالتهم الأولى في الحياة كالأطفال، أو أولئك الذين كانوا يعتمدون بصورة مباشرة في حياتهم على المغدورين، وبالذات زوجاتهم وآباؤهم.

وبإمكاننا بدايةً تحديد الضحايا المباشرين فنقول إنهم الشهداء ثم الجرحى الذين أثّرت فيهم الحرب، فأحدثت تغييراً جسدياً ونفسياً عميقاً فيهم، فأصبحوا غير طبيعيين.

أما الضحايا غير المباشرين فهم الزوجات والأبناء والآباء ومقدرات المجتمع وإنجازاته من بنىً تحتية وفوقية، أي أن الضحايا هم كل المجتمع برمته كاملاً، بل ومستقبله، أيضاً، لهذا لا بدّ من تصعيد المواقف الداعية إلى إيقاف الحروب في كل مكان، لما تحمله من ظلم ودمار، ولا بدّ من الضغط على المعتدين الغزاة لما يتركونه من خراب وضحايا وإشعالٍ

للكراهية والتخلف والأمراض، وإدامة للعنف والفجائع والجنون.
وهنا في الأراضي الفلسطينية، أصبح الأطفال الفلسطينيون الدريئة التي تتوجّه نحوها قذائف الاحتلال الإسرائيلي وبنادقه، حيث سقط منذ انفجار الانتفاضة عشرات عشرات الأطفال الفلسطينيين برصاص جيش الاحتلال الإسرائيلي، وأصيب مئات الأطفال بإصابات مباشرة جعلت أكثر من نصفهم معاقين بشكل دائم، عدا أن عشرات المدارس تعرّضت إلى إطلاق نار مباشر من جنود الاحتلال، حرمت أكثر من مئات آلاف الطلبة من مواصلة تعليمهم الالزامي، عدا الحصار المتواصل الذي ما زال يحرم الكثير من الطلبة من الانتظام في مدارسهم وتحصيل علومهم، ومنع كثير من المدرسين من الوصول إلى مدارسهم للقيام بواجبهم تجاه الطلبة. وتشير الإحصاءات الواردة من المكتبات أن نسبة القراءة عند الطلبة تراجعت بأكثر من سبعين بالمئة بسبب الوضع الاقتصادي والوضع المتأزم العام.
من جهة أخرى، ما زالت قوات الاحتلال الإسرائيلي تعتقل بضع مئات من الفتيان في مراكز التوقيف والاعتقال، وتمارس أقسى أنواع التعذيب والإرهاب النفسي والجسدي عليهم وابتزازهم بشتى الطرق المهولة، رغم أن بعضهم لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.
عداك أن إثباتات أكيدة تشير إلى أن عملاء الاحتلال الإسرائيلي يقومون بتوزيع المخدرات على المدارس الفلسطينية، وبطرائق حديثة ومتواصلة.
وثمة إحصائية تشير إلى أن الشهداء ما زالوا يسقطون كل يوم خلال الانتفاضة المستمرة حتى الساعة، عداك عن الجرحى، إذ إن أكثر من ثمانية عشر ألفاً سيظلون يعانون من عجز كامل وإعاقات دائمة. هؤلاء لهم

أبناء وأطفال يُقدّر عددهم بآلاف الأطفال الذين سيعانون من فقدان الآباء أو الحنان والأمن، أو التعايش مع آباء معاقين، وسيندفع معظم الأبناء إلى سوق العمل المبّكر كإحدى نتائج فقدان الأب أو إعاقته، مع أن البطالة وصلت بسبب إجراءات الاحتلال في فلسطين إلى ستين بالمئة، ما يعقّد مشهد العمالة والوضع الاقتصادي، وثمة إحصاءات تشير إلى أن عدد الأطفال الذين يعانون من هدم المنازل وتدميرها من قوات الاحتلال الإسرائيلي، وباتوا في العراء دون مسكن يعدون بعشرات الآلاف، عدا أن آلاف مؤلفة من الأطفال مُنعوا من الحصول على علاج يحتاجونه بسبب حواجز الاحتلال، وعَدم وصولهم للمستشفيات والمراكز الصحية، لتناول الطعوم اللازمة، وبشكل دوريّ.

وهناك إحصائية تشير إلى أن البيوت والمنازل والمخيمات التي دهمتها قوات الاحتلال الإسرائيلي بصورة مباشرة واعتدت على ساكنيها، يُقدّر عدد الأطفال الذين واجهوا هذه المداهمة المرعبة يزيد على نصف سكانها، خصوصاً إذا علمنا أن الأطفال في فلسطين يشكلون ما نسبته أكثر من أربعة وخمسين بالمائة من مجمل السكان الفلسطينيين.

ولعلنا، هنا، نشير إلى أن ما ذكرناه آنفاً قد جعل الأطفال ضحايا مباشرين لإجراءات الإرهاب الاحتلالي الإسرائيلي، أما الإجراءات التي تجعل الأطفال ضحايا غير مباشرين فهي تلك التي تبهظ المجتمع بصورة عامة وتدفعه إلى خسائر معنوية ومادية هائلة.

ولعل من أهم تجليّات الإرهاب الإسرائيلي عند الأطفال حالات الفزع والخوف الدائمين اللذين يظهران على شكل بكاء أو اهتزاز عصبي أو تشنج أو صراخ أو إغماء، كلما سمع الأطفال قصفاً أو رأوا جندياً

احتلالياً أو رأوا شهيداً أو دماً أو دماراً، وكذلك الكوابيس الليلية أو التبوّل اللا إرادي أثناء النوم، وعدم القدرة على التركيز والاستيعاب والتعلّم ما ينعكس سلبياً على العملية التعليمية. وأيضاً انهيار النموذج أو المثال في حالات اعتداء الجنود على الآباء وإذلالهم وقهرهم، واهتزاز القناعة والاعتقاد بمعاني المساواة والعدل والسلام الدولي والتعايش بين الشعوب، إلى جانب إحلال الكراهية والثأر والعنف بدل المحبة والتعاون والمشاركة، والتوجه إلى لغة القوة والعنف بدل الحوار بين الأطفال، ورسوخ مشاهد القتل والدمار والرعب، ما ينتج شخصية تعاني من الفوبيا «الرُهاب» والبارانويا والشك، ما يجعلها شخصية هشة ذات حساسية مرضية، أو إنتاج شخصية متطرفة حادّة، أو تعاني من الجفاف العاطفي والوجداني تميل للانكفاء والوحدة والهزيمة، كل ذلك بسبب فقدان الحنان والأمن الذاتي وارتفاع منسوب العنف ضدهم، وبسبب ارتفاع معدّل الخبرة الصادمة التي تُهجّر الطفولة بشكل غير صحي.

ولعل خوفنا يزداد اضطراداً على أطفالنا، لأن الحكومة الإسرائيلية بزعامة شخص معروف بمجازره مثل شارون ما زالت مستمرة في سياسة القتل والإبادة الجماعية بشتى الأسلحة المحرّمة دولياً، ومعروفة بدعمها المستوطنين المتطرفين الذين يقنصون البيوت ويستبيحون القرى والمدن، والذين زرعوا قنبلة موقوتة في مدرسة صور باهر جنوب القدس، كادت، لو انفجرت، تقتل أكثر من أربعمئة طفل فلسطيني، وزرع قنابل في مدرسة زيف ببلدة يطا، كادت تقتل العشرات.

ومن هنا، في فلسطين، نشعر بالأسى والأسف على أطفالنا الذين يعتبرون ضحايا مباشرين للقهر والعنف والاحتلال الإسرائيلي،

خصوصاً عندما نستذكر حقوق الطفل التي أقرّتها المواثيق الدولية، والتي لم يتوفّر أي جزء منها للطفل الفلسطيني، وهي: حق الطفل في الحياة، وحقّه في أن تكون له هوية وطنية، وحقّه في التعبير عن رأيه بحرّية، وحقّه في الحماية من سوء المعاملة، وحقّه في الراحة والتمتع باللعب، وحقه في الحماية من الاستغلال الاقتصادي وحقّه في أن لا يكون طرفاً مباشراً في أي نزاع مسلح.

ويحق لنا أن نسأل آباء الأطفال في كلّ العالم بحسرة: لماذا يُصرّ الاحتلال الإسرائيلي على مصادرة حياة أطفالنا الأبرياء؟ فهل كانت إيمان حجو ابنة الشهر تحمل سلاحاً، وهل كان محمد الدرة يحمل مدفعاً أو قنبلة؟ وهل أكثر من مئة وتسعين جنيناً ماتوا على الحواجز الإسرائيلية كانوا إرهابيين؟ وهل فداء التي قتلوا أباها على الحاجز ساعة ولادتها لا تستحق أن ينسحب من حياتها آخر احتلال بقي في هذه الكرة الأرضية؟

إننا نسأل، ونشعر بالأسف والمرارة، لأن موت الأطفال واحتراق لحمهم الطريّ بنار الاحتلال الإسرائيلي وصمة عار ليس في وجه إسرائيل وأمريكا فحسب، بل في وجه كل مَنْ يصمت على موت هؤلاء الصغار، أو زجّ هؤلاء الملائكة في جحيم لا يطاق.

طواحين الدم

من الاجتياح إلى الاحتلال
(2002/3/29 – 2002/5/4)

رواية لا تنتهي

هنا، لم تكن حرب، لأن للحرب أخلاقاً وحدوداً ونواميس، بل كانت استباحة مطلقة وعمياء، ربما تشبه طاحونة ضخمة، ارتفع شقّها الأعلى، ووُضعت الضفة الغربية فوق شقّها الأسفل، ثم انطبقت على نفسها، وراحت تجرش كل شيء، فسال اختلاط الدم والحديد والجير والعظام. ولم تتمكن عين الكاميرا أو الحواس العشر الشاهدة من رؤية شيء غير ذلك الخليط الفريد المفجع الكاوي.

*

وتلك كانت الطبول البعيدة التي وصلت إلى نافذتي، فترنّق الأصيص وفاض بنعمانه على أرق النوم، وبدأ حلمُ طفل يلهث بالشهد في براري الشقائق والشمس الصغيرة.
غير أن زجاجة الدم الحليب التي سقطت بفعل قذيفة أعادت الطفل رثّاً حافياً يغوص في مجرى المخيم، ويؤكّد أن المَظْلمة ما فتئت مكتملة.
إذاً، هو الدم والبطن المبقور والجلّنار المذبوح على صدر أمّه، واللجوء الذي ما زال يفرد غربانه من هناك إلى هناك.
ربما، كان بمقدور الكتب التي حقّقها الباحثون أن تكون أرضاً ثَرّة تبشّر بطلع حاذق، مثلما كانت إذاعة يافا وصوت الشاعر ورسائل صوت الثورة الفلسطينية الوامضة أساساً صالحاً لهذا الشتاء الدافق.

و«هنا» يعني: هنا أوّل حجر هشّم وصايا التائهين، وأحال المكان المؤوّل بالوهم، حيث تصل البساطير إلى سجن محدود سيجمع قضبانه ويعيدهم إلى التيه مرّة أخرى، ليس رغبة منّا في قذف الإنسان إلى الرمل، ولكن لتنغسل رئة الغزو بهواء الحقيقة، علّها تدرك أن العجل، وإنْ كان ذهباً، لا يصلح أن يكون آلهة.

«وهنا» يعني أن نفتح الأبواب دون أن نلتفت إلى الحجرات المتباعدة قسراً، ويعني أن نرى البيت من مائه إلى مائه صالحاً للحلم والأغاني والحقائب الصغيرة.

و«هنا» موجٌ لا يتعب، وإشارات مبهمة إلى أن النائمين فضيحة للسلحلك والذاهبين إلى الراية العالية. و«هنا» حبّات قلب الدالية الماسية التي تشفع لنا عند التعب والقصف وموت الأبناء.

*

خلف هذا الليل القاني نهار يولد، يحمل عافية الليمون وشهقة التين. هذا إذا أحسنّا رعاية الحليب وبرعم اللاثغ ابن الثاكل، أو بنت العشرين التي لم يجد أحدٌ لغةً يصف أصابعها المتوترة وهي تشدّ شَعرها المنعوف ساعة حملوا زوجها المذبوح على نعشه، والقشعريرة قد وصلت إلى جدران البيت الذي هدموا نصفه، وما زالوا في غرفته الأوسع يذرعونها بالمجنزرات التي تشبه الكنغر الذي يخبئ الدببة المدجّجين في بطنه الحديدي، أو كالديناصور الهائج الذي يسحق بأسنانه الفولاذية، فيصحو الليل المذعور يردد بهوائه الملغوم صدى ارتعاشة الأيدي والأرجل الصغيرة.

ثمة ما لا يوصف!

وهنا، بالضبط هنا، جنون كامل، ورعب كامل وبسالة كاملة. ثمّة كمال تشكّل بأمر الغزاة والناس البسطاء، مثلما هبطت الأساطير من عليائها الغائم إلى الأزقة والبيوت، وصعدت الخرافات الواقعية من بين الأضلاع والسقائف والطرقات.

ثمّة ما لم يدركه الكلام مهما بلغت بلاغته، وما لم تصوّره الكاميرات الحاذقة المطارَدة بالرصاص الحيّ والغاز المسيل للعار والأوامر العسكرية الصارمة.

*

لهذا، فإنّ الكتابة عن هذا الجحيم المهول، وعن هذه البطولة الفذّة ترتبك، وتختفي لأسباب عدّة:

أوّلها أن في فظاظة كلّ هذا القتل والتدمير ما يغني عن الكلام، حتى أن المرء يشعر بلا جدوى الكتابة أمام كل هذا الذي لا أدري كيف أصفه، وثانيها أن المشهد لم ينته بعد، وبالتالي فإن ما سيُكتب سيكون أقرب إلى الكتابة الميدانية الواصفة الساخنة الهادفة للشحذ والإثارة والتحريك، ولم نبتعد بعد عن الصورة لنتأمل تفاصيلها كاملة، ونتذكّر - ونحن نلهث خلف الجراح الدفّاقة أو تحت سواطير الموت - ما ينبغي تأمّله وسبر غوره لتكتمل الصورة التي ينبغي أن نقدّمها كاملة، إن استطعنا، لتكون الرواية شرعية وغير منقوصة دون تهويل أو صراخ، أو تكون شبيهة بتلك اللحظات، التي كانت أرواحنا تترجرج فيها، مثل الزيت المحروق في قارورة مشقّقة.

ثمّة ما لم يجر في أي مكان أو زمان! من جنين شمالاً إلى الخليل جنوباً، في بقعة اسمها الضفة الغربية في فلسطين، وعلى كل المستويات، على صعيد الأحداث بخطوطها العريضة الواسعة، أو في تفاصيلها المذهلة العميقة. ولكنني أستدرك هنا لأؤكد أنه لا يجوز، ولا ينبغي أن نشبّه ما فعله الغزاة المحتلّون الإسرائيليون بأيّة حادثة عبر التاريخ كلّه، مهما وصلت فظاعتها، لأنّ ما جرى هنا أكثر هولاً وفظاعة.
كما لا يمكن القبول بتشبيه المحتلّين الإسرائيليين بأيّة حركة أو شخص أو ظاهرة فاشية أو بربرية أو نازية، لأنّ المحتلين تفوّقوا على كل هؤلاء وغيرهم، وبالتالي فإن الاحتلال الشاروني قد بلغ ذروة النموذج المُهلك الوحشي اللاإنساني، ما يوجب تشبيه هولاكو ونيرون والبرابرة والفاشيين والنازيين والعنصريين ومَنْ شابههم بالاحتلال الإسرائيلي الحيواني الذي أخذ كل أشكال القمع عبر التاريخ، وقام بإعادة إنتاجها على الشعب العربي الفلسطيني، بعد أن عمل على تقطيرها وتأطيرها وتطويرها. إنه لمن الصعب أن نُشبّه الإسرائيليين بغير أنفسهم!

*

وهنا، ثمّة ما يبرر انفجار رمانة الصدر، أو الكفر العصبي بكلّ شيء، أو انفلات العقل تماماً، أو الجَوْح مثل السباع المجروحة في عتمات القصف، وارتطام الدبابات بالبيوت، ولحم السيارات والأرصفة والشجر، وكلّها مهروسة تحت قواطع المدرعات والمجنزرات التي تدهم كل شيء بغير سبب.. وبغير سبب.

وهنا لم يكن الإسرائيليون بشراً من نسل آدم وحواء، يحتلون شعباً آخر، ويريدون إخضاعه ودفعه للقبول بروايته أو رأيه، والمفترض أن يكون متكئاً على فكر بشري، حتى ولو كان أحمق أو مريضاً أو معاكساً لمنطق الأشياء، بل كانوا مخلوقات دموية، لهم هيئة الناس، لكنهم لا يتمتعون بشيء يصل، في أقصاه، إلى غرائز الوحوش المفترسة، لأنهم كانوا أكثر شراسة وسادية وانفلاتاً من الحيوانات، أو مصاصي الدماء الذين نراهم في أفلام الرعب، أو المرضى الخطيرين الميؤوس من حالتهم الذين فقدوا كل شيء، كل شيء. وربما كانوا «روبوتات» مكسيّة بجلد بشري، لكن دواخلهم مثل الرجل الآلي الذي اجترحته السينما الغربية، ليدمّر كل شيء! غير أن الفرق بين الجندي الإسرائيلي الغازي والرجل الآلي؛ أن الثاني لا يمكن تدميره ويستطيع أن ينهض مثل الفينيق المصنوع من البولاد ليواصل خلق العدمية، أما الأوّل اليهودي القاتل، فقد ثبت بمخيم جنين، على الأقل، أنه، على دمويته، هشّ جبان رعديد، رغم تفوقه التقنيّ المسلّح، يتحصّن في بطن الدبابات المصفّحة، فهي نموذج «الجيتو» الذي اعتادوا عليه واختبأوا، تاريخياً، في أحشائه المريبة الغامضة.

كما ثبت، أيضاً، أنهم لا يُقاتلون إلاّ من خلف جدار أو ساتر، كما تأكّد أن وصاياهم المتمثلة في: أقتل، انهب، اسرق، اذبح، اهدم، اقلع، الخ، تعاكس وصايا كل الأنبياء والآدميين، منذ جفّفت حواء مشيمتها الأولى، وبالتأكيد حتى ينفخ اسرافيل في بوقه ليقوم الموتى من الأجداث. ذلك لأن المنهاج التربوي والتعليمي والإعلامي اليهودي في إسرائيل لا يمكن أن يُنتج إلاّ مثل هذه الأمثلة الناتئة.

*

وربما يكون في انتصار الجسارة غير العادية للشهداء والأشاوس في غير مكان في فلسطين، إشارة واضحة بأن الشعب الفلسطيني يتمتع بما يتمتع به كل أبناء أمتنا العربية الإسلامية، من شجاعة وإيثار وحميّة. غير أن البوابات كانت مفتوحة في فلسطين، فاندفع الفلسطينيون يثبتون بطولتهم الخارقة في ساحة المواجهة الطاحنة، ما يعني أن الشعب العربي في كل أقطاره يستطيع، وببساطة شديدة، أن يكون مثل مخيم جنين ونابلس وكنائس بيت لحم وجوامع غزة وشوارعها، إن سُمح له.
وربما على هذا الشعب أن ينتزع هذا الشرف من براثن القيود والحدود والتعليمات المريبة، خصوصاً أن خروجه المتواصل احتجاجاً وغضباً وتأييداً لنا كان أحد أطواق نجاتنا، كما كان بمثابة يد الله على كتف الدار والزيتونة والرضيع. بل إن هزيمة إسرائيل، وكبح جماحها، وردّ غوائلها وصلف الجزارين فيها ممكن ومتاح وأقرب من النبض إلى القلب، ولا تحتاج إلى كل تلك الترسانات والآليات التي تصدأ في مخازنها وتضيع المليارات في سبيل شيطانها، الذي يريد للجنرالات الآمرين أن تكون نياشينهم لامعة وقلوبهم المطفأة ضدنا، وهراواتهم على أهبة الانقضاض!!

*

وهنا، لا يحق لأحد أن يدّعي أننا هُزمنا، أو أن السفاح شارون قد انتصر، وذلك لأسباب عدة أولّها وأهمها أننا لم ولن نرفع الراية البيضاء، وثانيها أن هناك نزيفاً متواصلاً في الشارع الإسرائيلي، يتمثل في الغياب

القوي للحياة في كل مقهى وحافلة وطريق، والخوف الحاضر في كل الفعّاليات والمؤسسات والمحلات اليهودية، وفي تلك الخسائر المتراكمة اقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً، إن كانت ثمة أخلاق!

*

ثم نسأل حكومة الاحتلال الإسرائيلي: وماذا بعد؟ وما من جواب سوى أن يرحلوا عنّا، لعلهم يشعرون أن فيهم شيئاً من أبينا آدم أو سواه من تلك التي تدّب على هذه المعمورة، التي باتت، للأسف، مستوطنة للأخطبوط الأمريكي الصهيوني، تستلب فيها الشرائع والمبادئ والاتفاقات، وتكيل بألف مكيال، وتقلب الحقائق، وتحاول تأصيل مفاهيم جديدة تخدم شهواتها ونوازعها الاستبدادية، وتنادي بجزّار مجرم رجلَ سلام، أو تمنح جائزة نوبل للسلام لبطل مذبحة قانا، وباني طوطم الرعب النووي في ديمونا، وتحرق النخل والطيور والنساء في الملاجئ وبيوت العبادة ومدارس الأطفال.

*

وهنا إرهاصات ظلام علينا أن نتنبّه لها حتى لا تنمو وتمرع وتعمّ الأنحاء، وتُغطي إنجازاتنا الوطنية وأسماءَ الشهداء الحُسنى، وتتمثّل تلك الإرهاصات في هامش الخطأ فينا، أو ما يحلو للبعض تسميته بالفساد، ما يوجب إجراء عملية تطهير داخلي، واستكمال التشريعات، وإعادة

حضور المؤسسة والسلطات المسؤولة المقامة على أسس محدودة وحديثة متكاملة تراعي الثواب والعقاب والمتابعة الحريصة المنتمية، علماً أن أيادي خفيّة وطابوراً خامساً يعملون بشكل حاسم وبنّاء على استراتيجية متمكّنة للدخول إلى أحشائنا وإشاعة المرض والفوضى فينا، وخلق بدائل مشبوهة وظواهر قاتلة.

ولعلّ جزءاً صغيراً وغير معلن من هذه الانتفاضة العبقرية قد اشتعل ضدّ الخطأ فينا، لكن جوهر الانتفاضة واتساعها كان متجهاً نحو الاحتلال، ويهتف للخلاص منه، والعودة للاجئين، وللدولة المستقلة، وللقدس الشريف عاصمة أبدية لا بديل عنها أو لها. وفي هذا السياق لا بُدّ، وفي أقرب وقت ممكن، من التقاط ومعالجة كل التجاوزات والأخطاء والثغرات التي أدت إلى إعاقة الانتفاضة، أو حالت دون وصولنا إلى بعض ما نصبو إليه أو أبهظتنا أكثر مما يجب.

*

وإن كل لحظة ألم وفجيعة وقعت في جوارح الفلسطينيين، وإن كل قطرة دم أزهرت مثل نجمة في رأس تلميذ أو ظهر شيخ، وإن كل تأوّه مخاض لحامل وضعت جنينها على حاجز عسكري للضباع، وإن كل شجرةً اقتلعوها من شروشها أو حجر هدّموه أو طحنوه، كل ذلك وغيره ليس من فعل جيش الاحتلال اليهودي وحده، أو مروحيّات الأباتشي التي تنخّل الحارات بالرصاص الغليظ والقذائف المصوّحة، أو طائرات الـ أف 16 الأمريكية التي تزلزل كل ما هو قائم وتخبزه بحمولتها، بقدر ما

أن مَنْ يوافق إسرائيل على أفعالها الإجرامية أو يصمت عنها أو لا يرعوي مما تفعله، أو يحول دون الضغط عليها، هو شريك كامل الشراكة معها، ونعتبره من حاملي المعاول التي حفرت القبور الجماعية لشهدائنا المغدورين، وجعلوا أمام مداخل مشافينا تلالاً فوقها نصبٌ رخامي كتب عليه أسماء ستة وعشرين شهيداً قضوا في غارة واحدة، أو نعتبره ممن عبأوا الرصاص في «باغات» الجنود، أو من الذين جعلوا من موقفهم الجبان توطئة ممهدة للمجنزرات التي فختت أقواس الأسواق والدور على رؤوس قاطنيها، ونسفت جامع الخضر، أو قصفت تمثال السيدة مريم العذراء عليها السلام.

كُنّا بشراً

لم نكن جميعناً أبطالاً مقدودين من صخر، بل ارتعدت فرائص الكثيرين، وعلا النشيج الجماعي غير مرّة في غير موقع، وراح معظم الجمهور يسدّ رمّانة البيت ويسدل الستائر، واحتضنت الأمهات أولادهن، وبحثن عن أكثر الزوايا سلامة في المنزل، وخبأنهم هناك، وتسابق الناس، قليلاً، إلى محلات البقالة والخضار والأفران، وابتاعوا كميّات كبيرة من الشموع وبطاريات المذياع «الترانزستور» غير الكهربائي، واقتصدوا في الطعام والغسيل، وأطلقوا ذقونهم، حتى لم تعد ترى أحداً إلاّ ولحيته قد نبزت وطالت - وربما لم يحلقوا وجوههم كسلاً أو حداداً أو احتجاجاً غير معلن على كل شيء - وازدادت المجادلات بين الأزواج، والخلافات بين الأطفال، وبدأت الأصوات

تعلو بالمداخلات السياسية الركيكة بين رجال الحيّ الذين تجمّعوا بعد أن اطمأنوا لابتعاد رتل الدبّابات وصمت فوهاتها وانطفاء نثار قذائفها. وراح الرجال يدلحون حسراتهم وأمنياتهم على مصاطب كلام الليل. وتكاد ترى ذلك الخيط المشدود أو النـزق في لسان المتناقشين الذين انتبهوا، لتوّهم، للأخطاء والثغرات والنواقص التي أدّت إلى اجتياح الاحتلال لأرضنا، واتسعت الموضوعات، وراح الحديث في كل اتجاه، أليس الحديث ذا شجون؟! لكن شجون الناس هنا حقيقة، وبارقة بالوجع والدمع والشتائم والمدائح، أيضاً. وربما تواطأ الجميع على أن يقبلوا المبالغات في تصوير هول ما جرى، أو تصوير بطولة أجمعوا على إطرائها والابتشاش لها، ما كان يخلق شيئاً من التوازن النفسي والرضا والاطمئنان، كلّما وصلت أخبار المواجهة وإلحاق الخسائر في صفوف الاحتلال. وربما أعاد الناس لأنفسهم القصص ذاتها مرة إثر مرة، ويصلون بعد كلّ سرد لها إلى نتيجة حاسمة، يبنون عليها تصوّراً كاملاً وسيناريو لما سيحدث. كما استحوذت البرامج المقدمة عبر شاشات الفضائيات على جزء كبير من اهتمام الناس، فتراهم يؤكدون الثناء على هذه القناة الفضائية، ويسبّون تلك التي تعرض الرقص والعري أو تنكر الشهادة على الشهداء.

مثلما كانوا، وكلما سمعوا صوت انفجار أو صدى قذيفة، أو رأوا دخاناً يصّاعد من ذلك الحيّ أو تلك الضاحية، يهرعون إلى هواتفهم المحمولة للاتصال بأحد معارفهم أو أصدقائهم للاستفسار عمّا جرى، وتدور الألسن بالتفاصيل والتهويل والتحذير، فينكمش المستمعون ويردّون بواباتهم خلفهم، ويتمترسون أمام التلفاز بحثاً عن جديد، أو بليّة تقع

على رؤوس الناس، غير أن موضوعاً بعينه كان فاتحة الكلام ومنتهاه بين كل المجتمعين؛ وهو الأنظمة العربية ودورها الغائب الفاضح.

وموقف الولايات الأمريكية التي أصبحت، وبشكل لا يرقى إليه شك، أكثر كرهاً وعداءً للناس من الاحتلال اليهودي. وبالتأكيد أكبر الفلسطينيون تلك المشاهد المؤثرة لأشقائهم المواطنين العرب والمسلمين وهم يقدّمون المساعدات والأموال والحليّ دعماً لهم، رغم ملاحظتين طالما يرددهما البسطاء من الفلسطينيين؛ أولاهما أن على الأنظمة الحاكمة أن تقدم الدعم وليس المواطنين «الغلابة» المساكين، خصوصاً تلك التي تصبّ المليارات في خزائن الغرب والعهر والتغريب، علماً أن الأنظمة تفتح للمواطنين أبواب التبرّع كإحدى آليات التنفيس، وثانيتهما أن الفلسطينيين ليسوا «شحادين» كما يقول البسطاء منّا، والمطلوب هو الدعم السياسي والعسكري الممكن! ولماذا لا؟؟

وقد يكون طبيعياً أن تزجي الرجال أوقاتها في لعب الورق «الشدّة»، حيث يتحلّقون في أحد بيوت الجيران، وينشغلون ساعات وساعات في فتّ الورق وعدّ حسابات اللعبة إثر اللعبة. وكالعادة، يعلو الصراخ والاحتجاج والشتائم الوديّة، ويكثر التدخين وشرب القهوة والشاي.. والتوقّف أحياناً إنْ وردت أخبارٌ تفيد بسقوط شهداء أو اجتياح مدينة أخرى!

فضائيات مؤسفة

وفي مرأى الكثير من الشاشات الصغيرة العربية ما يدعو إلى القهر والأسف، ولا أعني تلك البرامج التي تصبّ في واد، وهمومنا في واد

بعيد، أو تلك البرامج التي تبحث عن شرعية للفضائح والخلاعة، أو تلك التي تأخذ الرائي إلى كسل الإلهاء والبلادة والإحباط، رغم أن كل تلك البرامج هي جزء لا يتجزأ من سياسة استراتيجية شاملة وحاسمة تسعى إلى تغريب المواطن العربي واستلابه، وإبقائه مُفرَّغاً في عدمية تامّة، وحشوه بمضامين تافهة أو محددة سلفاً تقوده نحو المسرب المرسوم له من الأنظمة التي رسمت تلك السياسات الحاسمة، عبر منظومة معاصرة تفيد من كل نظريات العلوم الإنسانية والتقنيات الهائلة.

بل أعني، للأهمية البالغة، البرامج السياسية والحوارات ونشرات الأخبار التي «تستضيف» إسرائيليين، أو تسقط بشكل ساذج أو مقصود في مستنقع المصطلح الاحتلالي المشبوه، أو تلك التي تعمد إلى الإساءة للدم الطازج الفصيح الطاهر في فلسطين، والذي ينسفح دفاعاً باسلاً عن ثروات وأحلام ومقدسات وحقوق أمّة العرب والإسلام من المحيط إلى المحيط.

وهنا، أقصد الفضائيات التي تدّعي العروبة أو تلبس عباءة العفّة الحنيفة، وهي لا تملك من مقوّمات القوم إلاّ سلامة نُطق الببغاء، أو التستّر بغربال الريبة، وإلاّ فما معنى ما تقوم به تلك الفضائيات، ومنه على سبيل المثال:

أولاً: ترفض فضائية عربية تسمية الشهداء بأسمائهم الحُسنى، وتدّعي بوقاحة ممضّة أن الذين يستشهدون في فلسطين هم «قتلى»، وتستكثر عليهم هذا اللقب السماوي المقدّس الذي يستحقونه بجدارة مهيبة!!

ولا نأتي بجديد إن أشرنا إلى أن هذه الفضائية تتماهى تماماً مع دولة الاحتلال، وتقدّم لها صنيعاً كبيراً، بتحويل الشهداء إلى مجرّد أعداد أو أموات!!

ثانياً: تقدّم هذه الفضائية، ومعها عدد آخر من الفضائيات نفسها فضائية «نزيهة» «محايدة»، ليس لها علاقة مع «الفلسطينيين»، ولا دخل لها بما يفعلونه «الانتفاضة»، ودليلها على ذلك أنها تستضيف «الطرفين المتنازعين»، وتعطي كل طرف فرصة إبداء الرأي وتوضيح وجهة النظر دون انحياز أو تمييز!!

وعلى هذه الفضائية أن تعرف أننا ندرك أنها تساوي بين الضحية والجلاّد بقصد مقصود، مشبوه!!

ثالثاً: ويا ليت الأمر يتوقّف عند حدّ «المساواة» و«النـزاهة» و«عدم التدخّل»، بل إن هذه الفضائيات تربط بين «الضيف» الإسرائيلي ومدينة القدس؛ إما من خلال تقديم الشكر الجزيل له و«الذي تحدّث من القدس» أو من خلال وضع صورة القدس كخلفيّة و«الضيف الإسرائيلي» يشرح وجهة نظره، ما يعني تكريس القدس في ذهن المشاهد وهي مرتبطة بالإسرائيلي.

وكذلك التأكيد، عبر نظرية التكرار، أن الإسرائيلي هو طرف «طبيعي» في المنطقة، ولا غضاضة في «التعاطي» مع هذه الدولة الإقليمية، وكأنها دولة شقيقة!!

رابعاً: ويا ليت يا ليت تعتبر هذه الفضائية إسرائيل المحتلّة القاتلة الذابحة الحارقة الفاشية العنصرية المجرمة، دولة شقيقة «احتلت» طواحين الدم دولة «شقيقة» أخرى، فعندها ستصبّ عليها «لعنات»حفظناها، وسنأخذ منها موقفاً مشابهاً لموقف بعض الفضائيات العربية من دولة شقيقة نعرفها، قوامه العداء والسخط وتعرية ما تقوم به صباح مساء! رغم أن دولة الاحتلال ما زالت جاثمة على صدورنا، ولم يفرضوا عليها

الحصار، بل يفتحون لها مكاتب الارتباط ويزورونها، ويحتفون بنجمتها السداسية المسروقة من أضلاع الأندلس.
خامساً: لن أشير إلى أن هذه الفضائيات «تنتقي» أجزاء محددة من الصورة الشاملة، وتأخذ كلمة من سياق كامل، وتبتر جملة هنا وتوصلها بهناك، وتختصر أخبار الانتفاضة وتقزّمها، بقصد الإساءة والتشكيك وإشاعة اليأس والمقولات السوداء، ولكنني سأشير إلى تلك المصطلحات المسمومة التي تدحرجها تلك الفضائيات بمناسبة وغير مناسبة، وتقوم بتنغيمها تشفيّاً وكراهية نافرة مكشوفة.
إن العربي أو المسلم أو الإنسان الشريف لا يمكن أن يكون حيادياً تجاه ما يجري في فلسطين. وإن حصانة المؤسسة أو الفرد تتأتى من ممارسته وتجليّات مواقفه، ولا حسنة لاجتهاد أيّ «نجم» سياسي ملهوف يسابق الريح في «مفاوضة» جنود الاحتلال وضبّاطه عبر الشاشات والبرامج، لأن الموقف الطبيعي - الآن على الأقل - هو الخجل من الحديث مع القتلة! وإن تقديم الفضائيات المتحدثين الإسرائيليين هو تقديم صورة «حضارية» للإسرائيلي المحتلّ القاتل، ليتلقّاها المواطن العربي ويتهيّأ لقبول الإسرائيلي والتطبيع معه، لأن «المتحدث الإسرائيلي» يتم تقديمه أنيقاً لبقاً بلغة عربية غير هجينة!! وليس كما تقدمنا وسائل إعلامهم في كل مكان قتلة وإرهابيين ومتخلفين، ثم هل رأيتم أو سمعتم وطنياً فلسطينياً أو عربياً أو مسلماً على شاشة دولة إسرائيل أو فضائياتها أو إذاعاتها أو أذرعها الإعلامية عبر الأرض من شمالها إلى جنوبها؟ أم أننا كُنّا في دول مُغلقة، وتحوّلت، ونحن منشغلين بدفن أطفالنا وأشجارنا وبيوتنا، إلى دول ديمقراطية مفتوحة كفم النائم الغشيم الأبله؟!

. . . ولكن رغم كل هذا، لا نجحد الدور المشرّف الذي قام به المراسلون والصحافيون وبعض الفضائيات تجاه الاجتياح والاستباحة والبطولة العالية.

صمت ثقيل

ولم نكن جبابرة كلّنا، لكنّ الحصار خلّصنا من أوهام كثيرة خطرة، كانت تعشّش في أقفاص صدورنا، وأستطيع أن أجزم بأن حاجز الخوف قد تخطّاه كلّ الناس دون استثناء، لأنّ حجم الاستباحة الإسرائيلية جعل المواطنين يشعرون، ولأيام متواصلة وثقيلة، بأنّ الحياة تساوي الموت، وبالتالي لا خوف من إبريق ماء ينسكب على رؤوسنا، فكلّنا في محيط هائج.

ولا يخلو الأمر من مفارقات مضحكة، فأسباب البكاء لا تعدّ ولا تحصى، بل لم يعد الرجال يخجلون من البكاء أمام زوجاتهم وأولادهم. ومن المضحك المُبكي أن الأحاديث كانت تصل أحياناً إلى ترديد النكات والطرائف، وكان بعضهم يعلّق على الآخر بتلميحات بريئة، فيضحك الجميع! لكن الغريب أنه وكلّما ضحك الرجال انتهى ضحكهم إلى صمت ثقيل، كأنّهم يكفّرون عمّا اقترفوه من فرح! ولعلّي أذكر ذلك الانشغال البادي على وجه أحد جيراني، ولمّا سألته عمّا يشغله، تردّد بادئ الأمر، ثم أسرّ لي بأنه يواجه مشكلة عويصه مع زوجته! فما هي يا جاري العزيز؟ قال لم يعد في جارووه واق ذكري! ضحكت، وقلت له ثمّة واقٍ حديدي يفترع الناس ويحرقهم بحممه، اصبر يا صاحبي.

وبالتأكيد لم يرد لزوجته أن تحمل، لأنها لن تجد سيارة إسعاف تحملها إلى المشفى، فتموت مثلما ماتت جاراتٌ وجارات.
يا جاري العزيز:
يسقط الليل نهارياً على الشتاء، فيغطّي شحوبهُ رام الله!! وثمة مَنْ تدخّل بكامل سندس العشرين، يتفلت من غيمها رذاذ البرق، فيطيب المطر خلف الشباك.
كيف لحديقة البحر أن تترك عرائسها هكذا نهباً للعيون؟ هل كان لا بد للشاعر إلاّ أن يلتقي صدفةً بجديلتها المرعبة، حيث يتذكّر جلسة أمه وجاراتها في ذلك المخيم الذي ملّ البكاء؟
أكادُ منذ توالي أخبار الموت أقذف بكلّ هذا، لكنني لم أتقن البكاء بعد، أو كأنه لا يليق بالرجال الذين تعودوا الثنائية في كل شيء.
يسقط الليل ورنّة الأغنية البعيدة جارحة إلى حدّ السطوع والقشعريرة، وماذا عساي أفعل الآن في هذا النهار المعتم، وأمامي موقدة المقهى تتضوّر حزناً على جذع الزيتون الذي إنْ تجاوزته أنياب الفولاذ، فإن النار ستأكله كالحسد البغيض؟!
أشربُ كأس البابونج وصديقي يحترق بنبيذ بعيد، علّه يلاقي أمّه ذات مساء، في شتاء قصيّ، وأمامها تبتهج النارُ المخلوعة برضا من أرضها القديمة إلى أهلها الأقدم.
بي رغبة شرسة للبكاء الممتدّ، علّني أصالح الحزين فيّ، وهل سينتهي الحزن بالبكاء؟ أم يتجدّد خفيفاً متحملاً ومعقولاً، أيضاً؟ أرجو ذلك.
وصديقي الذي أهمل ذقنه منذ أيام كثيرة ينسى أن يأكل، أو يتسلّم راتبه، أو يلتفت لغزالةٍ يسيل دمها على خدّيها دون قصد. صديقي هذا أحبَّ

سحابات الحزن اليابس في وجهه، ويذكّرني بقسوة كلِّ شيء حولي، وأكاد أحمل كفيّ وأحضن وجهه وأرجوه أن ينسى أمّه قليلاً، حتى لا أختنق بطحين الدمع المحبوس في محاجري، أو أن يترك زوجته تحمل منه رغم الموت.

صديقي المجنون الطيب الحزين المأخوذ بجناح الشيطان البريء، الموجوع دون إرادة، الوحيد بين أشجار الوجوه المعدنية، والباكي وحده على وسائد الليل. صديقي الذي يختزل في دمعتيه نشيج كل الرجال والنساء الذين ينظرون صغارهم في المنافي يوم العيد، ولا يطرق بابهم أحد، كأنهم وهو فيهم وحدهم في أرض الغبار الواسعة، غرباء تكاد قلوبهم تحتشد بالماء الذابح. صديقي هذا نقطة في سطر طويل طويل طويل، لكني أبصر آخرته وأرى طفلة تحمل طبشورة بيضاء، تكتب كلمات جميلة، تشبه الأزهار البريّة ورائحة تراب الربيع، فيما يتلاشى السطر الأسود من لوح الحياة.

أرى صديقي يقبّل يد أمه وهو يبكي فرحاً، ويعانقها فتمسح بيمينها رأسه وتطمئن أنه لم يكبر!! لأنَّ صديقي يصبغ شعره بالحنّاء الأسود، حتى يكون دمع أمّه أكثر بهجة وهي تحضنه وتحضن زوجه وولده، فيما يتركون جميعهم خلف ظهرهم الموقد وهو ذاهبٌ إلى نومه، بعدما جمع جناحيه وأطفأهما في الرماد، رماد السنين التي لن تعود.

قصف "الشِّعر"

في صبيحة اليوم الثامن من الاجتياح، اتصل بي صديق وأخبرني أنهم قصفوا مبنى «بيت الشعر»، الإصابة كانت مباشرة، بل في سويداء اللافتة

التي كتب عليها بخط عربي واضح: المركز الثقافي الفلسطيني «بيت الشعر». خمس رصاصات حاولت أن تصيب كلمة الفلسطيني، ومثلها، ربما، أصابت الشعر، لكن فلسطين بقيت كما بقي الشعر، وظلّ بيت الشعر جاثماً برسوخ يمطّ شفتيه في وجه مستوطنة «بسغوت»، التي تتهيّأ للرحيل وإلى الأبد.

سقطت ثلاث وعشرون رصاصة غليظة متفجّرة حارقة على مقرّ بيت الشعر في فلسطين، فانخلع صدر الباب وانخدش الجدار الحجري، وانحطم شباك الحديد الذي فختته أربع رصاصات نعفت نثار زجاجه في كل مكان.

لقد وصلت الرسالة، منذ انفجرت سيارة غسان كنفاني بلحمه الحرّ، ومنذ توزع لحمه في «فردان» ليظلّ شاهداً على سدنة الموت الذين قطروا كل أشكال القمع وأعادوا إنتاجها على الطير والشجر والحجر، وقبل ذلك الإنسان وروحه الأولى الشعر.

لقد وصلت الرسالة منذ حطّ أول صهيوني حجراً سرطانياً على قلب فلسطين منذ مئة عام، لكن العرب والعالم لم يسمعوا بعد، ولم يروا تلك الرسالة المتوحشة التي تأكل الزيتون الرومي المغموس بلحم الصغار، ودماء أمهاتهم وجداتهم وجدران آبائهم.

لقد وصلت إلينا الرسالة للمرّة المليار، فكان أن باع المزارع والحارس والفارس ذهب زوجه وأساور عرسها، لكن الرسالة التي لم تصل إلى حكّام العرب آنذاك فجعلت المجازر اليهودية حلالاً زلالاً، فكانت النكبة وكان ان اقتات جيبوتنسكي وبيغن وشارون لحم الحوامل والمرضعات، وما زال شارون يتهيّأ لآخر فصل من فصول الرسالة لتكتمل برحيل الباقين.

هكذا يحلم، لكنه لم يَرْعَوِ من الكوابيس، ولم يعتبر من جسارة الفدائيين وأحزمة الجسد المضيء ومقاليع الانتفاضة الكبرى ومتاريس هذه الانتفاضة التي ستقلب نهاية الرسالة، وليرتدّ اللجام على الحوذي السادي! هل تسمعون أيها الأشقاء؟ هل تقرأون أيها الأخوة؟
هل تنظرون أيها الأصدقاء؟
لماذا إذاً يتوالى انكسار الرماح المسمومة على جبهاتنا التي تحاول أن تبقي الحرم والكنيسة والأسوار كما هي طاهرة مطهرة، تدرأ الدنس، وتدافع عن الينبوع والحروف ولمعة الولادة الصعبة.
لقد وصلت رسالة الاحتلال، زخات محكمة على جسد اللوحة التي تحاول أن تبقي قرميد حيفا وليمون يافا بكامل العبق، أو تسعى لأن يظلّ الحلم ريّاناً نابضاً حيّاً في وجدان الأجيال الطالعة، ليعرفوا بقصد مقصود حدود البلاد والحق الكامل والسلام المستحيل، لقد وصلت الرسالة قبل أن نولد، ومنذ جفف أول مجاهد ذراعيه من ماء الوضوء، ليدخل مع «القسام» معركة ما زال دمها ساطعاً في وادي السريس، أو ليدافع مع «الحسيني» في القسطل، أو ليحمل قفة الحجارة عند حاجز البالوع أو المنطار، وصلت الرسالة وسيظلّ جوابنا كما بدأ منذ تظاهرة أهل يافا، مروراً بشهداء عكا الذين تسابقوا إلى أنشوطة المشانق، إثر معركة البراق الذي سيظلّ بكامل جناحيه، مهما ادعوا أنه حائط البكاء، وانتهاء بطفل يحمل أمته على كتفيه، ويمضي بها إلى «بسغوت» التي سيكون لها اسم ضاحية أحد الشهداء، أو كل الشهداء، لا فرق.
لقد وصلت الرسالة، ولن يتوقف الشعر!

الحاجة زينب في مخيّم جنين

في مخيم جنين، وفي منتصف الليلة الخامسة لاجتياح مخيّم جنين، اتصل بي الصديق الشاعر يوسف المحمود وقصّ على مسامعي هذه الحكاية:

ليس للحاجة زينب ذكر عال في الدنيا، ولم يعد لها جثمان يردمون عليه التراب، لكن لها أبناءً يذكرونها بالخير، ويقدّمون لحضورها البهي فاتحة طاهرة ودمعة صادقة، ولربما لن ينساها المخيم ما بقي.

كان الحنّاء أخضر على بطني كفّيها وكعبي قدميها، ولم تلبس من ثياب صندوق الصندل غير المطرّز ذي الأردان، والشال الشامي الناعم، لكنها احتملت مع «أبو السعيد» عيشة الخيمة، وأقامت معه السقيفة في المخيم حجراً حجراً، وجبلت بيديها التراب المخلوط بالقشّ والتبن، وابتهجت للمعة ألواح الزنك وهي تغطي سقف الغرفة التي مدّها أبو السعيد بالأسمنت المالس. وكبر سعيد وسعاد، ولم يشعرا باليتم بعد أن سقط أبو السعيد عن سقالة البناية التي كان يعمل فيها، ولم يكونا قد تجاوزا الثامنة والسادسة من عمرهما. وهاجر سعيد إلى الكويت وتزوجت سعاد في قرية مجاورة، وأقام سعيد بعد سنوات من البحبوحة والعمل داراً مكان السقيفة!! وعندما وقعت نكسة حزيران 1967، كان سعيد في الكويت، ولم يحصل على «المواطنة» فكان يأتي لزيارة والدته «أم السعيد» كل عام أو اثنين بوساطة تصريح من «الإدارة المدنية» المحتلة.

أما سعاد فقد دهمها مرض فتّاك بعد زواجها ببضع سنين، وبقيت أم السعيد وحدها في البيت، تفرش حنانها وعطاءها على كل بيوتات

المخيم، حتى أصبحت أنيسة كل محتاجة أو مصابة، وجابرة لخواطر الأرامل والمستورات. وعند الغروب تفرش سجادتها أو الجنبيّة على مصطبة مدخل بيتها، تسبّح وتتمتم، وتردّ التحيات بأحسن منها على الصغير والكبير، وتأتي الختيارات والجارات ويجالسنها، حتى بات مقعدها ديواناً يقصده كل مَنْ يبحث عن أمّه أو زوجته.
وخلال سنوات الانتفاضة الكبرى، ومنذ اندلاع هذه الانتفاضة المتواصلة، ازداد نشاط الحاجة زينب التي شاركت كل دار في المخيم دموعها وزغاريدها، وكانت واحدة أصيلة في كل بيت، لها الطاعة والاحترام، ولرأيها، والذي قلّما تدلي به، النفاذ والتقدير.
وعندما حاولت الدبابات والمدرعات اقتحام المخيم، كانت أم السعيد تتحزّم، وتشدّ رأسها بعصبة المنديل، وتلحق بالشبّان، في محاولة لتقديم أيّ شيء قد يحتاجونه، وصوتها يعلو بالدعاء والدعوات، حتى أصبح وجود الحاجة زينب جزءاً من مشهد الشباب وهم يتحلّقون في الساحة أو خلف الجامع، تقتعد حجراً مثلما يفعلون، وتنسلّ لتعود وهي تحمل بعض الطعام وصينية الشاي، وتظلّ معهم حتى انبلاج الخيط الأبيض.
ولّما اجتاحت المدافع والآليات والجنود بعض المخيم، وراحت الطائرات تقصف، والمدافع ترمي، والمدرعات تهرس كل ما يعترضها وتجرش كل شيء، وضاق المخيم، على ضيقه، بمَنْ فيه، اضطر عدد من الشبان إلى الاحتماء في بيت أم السعيد.
لاحظت الحاجة زينب أن ثمة صندوقاً يحمله الشباب، مليئاً بالمتفجرات والديناميت، فصمتت واعتراها ذهول حتى كأنها يبست مكانها، فظنّ بعضهم أن الخوف نال منها، وفجأة طلبت من أحد الشبان أن يذهب

سريعاً ويحضر لها الشيخ أحمد، ولمّا حاولوا استفهام ذلك، قطعت الجدل بإعادة طلبها، وبعد دقائق حضر الشيخ، فأخذته بعيداً عن الشبان وهمست في أذنه، ولم ير الشبان الشيخ إلاّ وهو يومئ بالإيجاب، ثم قالت له: انتظر يا شيخ، ودلفت إلى غرفتها وأحضرت رُزمة أوراق ملفوفة بالنايلون القديم، ومبلغاً من النقود، أعطتها للشيخ وقالت له: هذه الأوراق هي كواشين أرضنا ودارنا في البلاد، أعطها للسعيد أمانة، وهذا المبلغ توزّعه بمعرفتك على المحتاجين، ثم استدركت قائلة له: أكيد شهيدة يا شيخ؟ فقال لها: أكيد يا حاجة، فابتسمت له وقالت: الله معك، سلِّم على أمك وعيالك، وخرج الشيخ أحمد من البيت وهو يقلّب في يده الرزمة والدنانير غير واعٍ لما يحدث.

بعد ساعة أو أقلّ، فتحت الحاجة زينبُ باب بيتها، وراحت تنادي على الجنود الإسرائيليين وهي تولول، طالبةً منهم أن ينقذوها من مجموعة شباب مسلّحين دخلوا دارها ويحاولون سرقة مالها وذهبها، فهجم أكثر من عشرة جنود نحوها، ودخلوا إلى البيت وهي معهم، وبعد ثانية أو اثنتين انفجر البيت وتطايرت شظاياه، وانتعفت نوافذه وأبوابه، وهبط بسقفه على مَنْ بداخله.

على بُعد خمسين متراً، كان الشبان يقفون خلف نافذة أحد البيوت، بعد أن ضغطوا على مفتاح المُفجّر، وعيونهم الحمراء تسحّ على أم السعيد.

*

نحلةٌ تدور بطنينها، تمتصُّ رحيقَ التيجان الريّانة، وتعود لقفيرها، تحيلُ الشمع شَهداً لاذعاً، لكنها احترقت، وانساح قتارُ العسل مع جناحيها المشتعلين، ولم تعد تلك النحلة إلى ملكتها أو شقيقاتها العَاملات، ربما لن تصدّق السائحاتُ بين نسغ الأشجار أنّ جمرة شاغلتها حيناً كانت تدور حول صحن الجمر، تشربُ اللهيبَ المنسرب، حتى غالبها إغراءُ الزهرة الحمراء، فَسقطت بكامل جناحيها وأقدامها، وفتحت فمها، وحضنت الجمرة! حتى سال الدم العسلي، تاركاً بقعةً أطفأها الشهد.
ولماذا يحرقنا الآدميون، إن كانوا كما نرى، ويتركنا الأشقّاء هكذا، دون حراك؟! وقالت: كان بوسع الجمرة أن تتعجّل النهاية، وكان بإمكاني أن أحطّ عليها بسلام واطمئنان، لكنّي سأكون رماداً لا يصلح لحرق مائك اللزج العذب. وربما اعتديتُ على طبيعة الوهج، الذي لم يبدِّل أوصافَه، إلاّ عندما احتضنه إبراهيم الخليل.
وربما كنتُ رسولةَ النحل، الباحثة عن الاتقّاد الموّار، لعلّي أُعلِّم النحلَ اجتراح المعجزات، أوَليست مياه بطني علاجاً يبرأ منه المصابون، بالعجز أو الحمّى؟ قالت: لكنّي ابنةُ النجمة التي اتقّدت منذ الأزل، وتشظّت في السماوات والأرض، وأعطت روحها للجحيم المقدّس.
وما تلك النجمةُ التي يُطفئها ماءُ الصغار المزدحم فيهم، أو رشقةُ ماء المرأة في صحن بيتها، أو شيخٌ يدلح ما تبقى من كأسه على الموقد، في كانون، عندما يأتيه سلطان النعاس؟ لكنني سيّد القصاص، وحلَمَةُ الشهوة، ولسان الحقّ أو كفُّ الأذى، لن ينجو منّي يوم القيامة إلاّ مَنْ ظللّه العَرْش، أنا مرجل السعير الهيّاب، وهاوية الغزاة، لا أرحم، وندائي هل مِنْ مزيد؟ وأنا نداوة صدر مَنْ حفظ الحرز المحفوظ، لينجو

منك أيّها القاتل، واسمي في ألواح العرش نور دفّاق، يتزيّا فيه العُبّاد في الأرض النابع، أو السقف السابع.
كانت دمعتها قد قاربت على السقوط، قطرةَ ماء من جمرة سوداء واسعة.
لعلّها سمعت وجع المناجاة، فأشفقت على النحًلة التي تدًور في حجرات قلبها، وخافت أن تكون قد احترقت هناك، توقّفت، وأنصتت لخرير دمها، فلم تسمع طنين النحلة في ضلعها، لعلّها احترقت، بعد أن غاب إلى الأبد، وقبل أن ينتقل الخاتم إلى الإصبع الآخر، لعلّها احترقت.. لعلّها احترقت!

*

والآن، هل من الضروري أن نذكّر المهرولين الساقطين، الذين يدعون إلى التطبيع مع الكيان الاحتلالي، بما يفعله هذا الاحتلال؟ وهل من الكياسة أن نكشف المكشوف ونقول لا يوجد هناك حركة سلام إسرائيلية! وإنْ كانت، فأين هي؟ وماذا فعلت؟ ألم يثبت بالدليل القاطع أن تسعة وتسعين بالمئة منهم شارون وموفاز وجنود احتياط وقتلة! وحتى أدعياء الثقافة في إسرائيل كانوا أكثر تطرّفاً من الجنود الساديّين، فكلّهم، كلّهم دون استثناء وقّعوا على وثيقة تدعو شارون إلى المحافظة على القدس الموحدة عاصمة لهم، ورفض عودة اللاجئين الفلسطينيين، والإبقاء على معظم المستوطنات، وبعد كلّ هذا ما زال البعض يتشدّق ويوقّع الوثائق المشتركة معهم ويدعو إلى الحوار والتعايش والتطبيع!! أي سقوط هذا، وأية هزيمة تلك؟ بل أية وقاحة وقلّة حياء؟

وربما، ربما لا نقدّم صك براءة لدعاة حقوق الإنسان والحريّات من هيئات ومؤسسات ودول، رغم أن مجازر الاحتلال اليهودي الإسرائيلي جرائمه ضد شعبنا العربيّ في فلسطين كانت كافية لتخلّص أوروبا، على وجه الخصوص، من بقايا تبعات الهولوكست المبالغ فيها، لكننا، ولشدّة واقعيتنا، أحياناً، نتذكّر القول القائل:

«لا توجد صداقات دائمة أو عداوات دائمة، بل هناك مصالح دائمة».

أما مصلحتنا الدائمة نحن الشعب العربي في فلسطين فهي في تأبيد وإدامة المواجهة مع هذا الكيان، الذي يؤدي دوراً وظيفياً يهدف إلى مصادرة مستقبل أمّتنا، وتغريبها، ونهب ثرواتها.

معازل الأبرتهايد

من الاحتلال إلى الاحتلال
(أيار 2002 – أيلول 2002)

قعدوا واستراحوا !

وثمة ضحايا غير مرئيين لم تذكرهم وسائل الإعلام أو يوضعوا على قوائم الشهداء والجرحى والمعتقلين، وأعني بهم مجموع مئات الألوف من الفلسطينيين الذين كانوا يرون أطفالهم وهم يرتعشون مثل الشجر العاري أمام ولولة العواصف النابحة، أو أولئك الذين رأوا الشظايا وهي تحزّ بطون أمهاتهم، أو تفتح جروح فلذات أكبادهم، وهي تفهق في ليل غير رحيم. أو ذلك الزوج الذي جاء المخاض بيته، فماتت الوالدة والوليد اختناقاً بالدم والأوجاع. أو ذلك الرجل الذي منعوه من الوصول إلى غرفة غسيل الكلى في المستشفى القريب، فاختنق بسموم ماء خاصرتيه أمام أولاده وزوجه. وهل أنسى ذلك الصراخ المروّع لبضع نسوة في آخر الشارع، والذي جعل الحارة برمتها تفتح نوافذها وتخرج على غير حساب، لترى ثلاث جثث هم رجل وولداه، حاولوا منع جنود الاحتلال من الاعتداء على النساء، فسال دمهم وتجمّع حتى أصبح بركة، غمست النساء كفوفهن فيها، ولطمن وجوههن بهذا الحناء، الذي راح يتخثّر على وجوه نساء الحارة، على مشهد من الصغار، الذين خرجوا دون إذن أهاليهم، والذين انشغلوا بتلك الجثث التي ظلّت خمسة أيام أمام النواح والانكسار والحسرات!!

وبالتأكيد، أعني، أيضاً، آلاف البيوت التي تم اقتحامها، وتحطيمها وحرقها ونهبها وتخريب كل ما فيها، أمام أحداق الصغار المفزوعة، وارتعاد النساء الجامدات من الهلع والخوف على كل شيء! وهل أعني تلك الخسارات الثقيلة التي طالت المحلات والمركبات والأبنية والأملاك

العامة، حتى أصل إلى العذاب الحقيقي الكامن في كل خطوة مغامرة تسير من مكان إلى مكان، وهي مهددة بإطلاق النار وقضبان الطائرات التي تفتت الصخر والرؤوس والنوافذ، وفي منع المريض من الوصول إلى العيادة، أو الابن إلى صفّه المسالم ومدرسته التي أصبحت معسكراً للجنود؟

وهل سأعني الآلاف المؤلفة من الآباء الذين مُنعوا من العمل، وأصبحوا على مدار عامين لا يجدون قرشاً أو كأس حلَيب أو رغيف شعير؟

إذاً، لا داعي للتنويه إلى الإحصاءات المرعبة لعدد الذين أصابتهم الجلطة أو القرحة أو السكري أو الضغط، أو الذين يتناولون المهدّئات، عدا الذين ماتوا فجأة، مثل أشجارهم المخلوعة من شروشها العميقة، احتجاجاً صامتاً على هذا الجنون الكامل. ويا ليت أرتال الدبابات الإسرائيلية اجتاحت المدن وخرجت منها، فعندها ستتم إعادة نصب أعمدة الكهرباء، ومواسير المياه، وربط خطوط الهاتف، وإصلاح البيوت، والطرقات، وإزالة السيارات المعجونة عن الدروب، وإيصال الأموات إلى مقابرهم، والنساء إلى غرف الولادة، والأطفال إلى المدارس، والرجال إلى العمل والحقول القريبة.

يا ليتهم استباحوا وراحوا، لكنهم هذه المرة قعدوا واستراحوا، وفرضوا نظام منع التجول على المدن التي أصبحت أصلاً سجوناً كبيرة، محاطة بالأسلاك والدبابات والطائرات الهادرة ليلاً ونهاراً.. فقط.

ويُسمح للمواطنين الخروج أسبوعياً من عتمة بيوتهم المُغلقة الفارغة من الطعام والدواء والماء والكهرباء بضع ساعات.. للتزوّد بالطعام وشراء ما يلزم، والسؤال: مِنْ أين يأتي أرباب العائلات بالنقود ليشتروا

حاجياتهم؟ وما مصير التعليم والتطبيب والتنقل من مكان إلى مكان؟ وأين سنحتفظ بموتانا ومخاض نسائنا، وكيف سيحتملنا الجدار البيتي ونحن نبحلق فيه منذ ستة أشهر دون أن يكرهنا؟ أليست الإلفة تولد الاستهتار، مثلما يولّد الجوعُ الكفرَ والجنون؟

ستة أشهر من الاجتياح، والمدن عبارة عن معازل مغلقة على نفسها، والبيوت منغلقة على ساكنيها، وعمليات «التطهير» الإسرائيلية لم تتوقف عن قتل هذا، وقصف عُمر هذا، واعتقال هذا، ونسف بيت هذا، وقلع حقل هذا، وإبعاد هذا، وتأديب هذا، ومنع التجول على هذا، واختبار هذا، وحرمان هذا، وتجويع هذا، وإذلال هذا، واحتقار هذا، وضرب هذا.

ستة أشهر، والسلطة الفلسطينية، المضغوطة والمحاصرة، لا تملك إلا الاحتجاج اللفظي الخجول، والتصريح، كردة فعل، على إجراءات الاحتلال، دون أن تملك القدرة على إحداث فعل نوعي يخلّص الناس من هذا الجحيم الفتّاك، والذي إذا استمرّ، فسيخلق الكثير من الظواهر الحادة والخطرة، وسيؤدي إلى الانفلات وتمزيق الذات، ويجعل الكثيرين، رغماً عنهم، مثل الزجاج المشروخ، جارحاً ولا ينفع لصدّ الريح.

ستة أشهر والأنظمة العربية والإسلامية ودول العالم المنافقة ترى بأم عينها ما يجري من أمور لا تصدّق وفوق الاحتمال البشري، ولا تحرك ساكناً!؟

ستة أشهر والاحتلال يضعنا في قدر تشتعل ناره، ونغلي فيه، ويحرك ما في القدر بسفّود مشتعلٍ يكوي به قلوبنا ولحمنا وأعراضنا، ولا من محتجّ؟!

ستة أشهر، بعد أن قضى الاحتلال على كل الرموز المقاومة والعناصر المقاتلة والنتوءات الثورية الرافضة، زجّ بالآلاف في السجون والمعتقلات لتفرغ الأرض من الفرسان، وتسير مجنـزراته، على راحتها، في الشوارع وتحت نوافذنا الخرساء.

ستة أشهر ونحن نتلهّى بفتات الاقتراحات السياسية التي لا تغني ولا تُسمن من جوع، بهدف الحفاظ على أمن الاحتلال، ودون أن يرفعوا الصخرة عن صدورنا، والرماح عن خواصرنا المدّماة.

ستة أشهر، ونحن مشغولون في كلام حق يراد به باطل، عن الإصلاح والفساد والوزارة والحقوق المنهوبة، دون أن نبدأ من جديد، ونعيد النظر في كل شيء، ونؤصّل من البداية لكل شيء. . كل شيء، وننفض، مثل الفينيق، الرماد عنّا، ونعلن عن خلق جديد.

لماذا؟

ستة أشهر ونحن نحاول اتقّاء شرّ الوحيدة المتحكّمة في هذا الكوكب؛ الولايات المتحدة، فلسطينيين وعرباً ومسلمين ومسيحيين، خصوصاً بعد أحداث واشنطن ونيويورك وخطاب العولمة الجديد، وحرب واشنطن ضد ما تسميه «الإرهاب»، ونزعتها الواضحة في ضرب العراق، بعد أفغانستان بدعوى ملاحقة الإرهاب، ولم ننبس ببنت شفة! رغم أننا نعلم أن أمريكا التي تطالب العراق بتطبيق قرارات الشرعية

الدولية، هي نفسها التي تعين إسرائيل، لكي لا تنصاع للإرادة الدولية، وتطلق قفّازاتها في وجه العالم!

ونعلم، أيضاً، أن واشنطن تحاول، منذ عقود، أن تسيطر على عقل العالم وقلبه وأطرافه، ولكي تظل مسيطرة على منابع النفط في باطن الأرض من الخليج العربي حتى بحر قزوين.

ونعلم، كذلك، أن حرب واشنطن ضد العراق والعرب والمسلمين، ودعمها إسرائيل، يهدفان إلى تشظية العالم العربي أكثر مما تشظّى بفعل اتفاقات سايكس بيكو. فأمريكا لم تكتف، على ما يبدو، بتحطيم الدولة الأُمّة إلى اثنتين وعشرين أمة متغايرة، كلَ أمة في دولة قطرية منفصلة، بل تريد، الآن، أن تمزّع كل دولة قطرية إلى دويلات.. ونحن نخدع أنفسنا، ونمنّي ذاتنا بأن أمريكا ستعطينا دولة، وستمنّ علينا باستقلالنا وقُدسنا وحقوقنا؟!

ألم يحن الوقت بعد لكي ندرك أن ثمة فرضيات واجبة الوجود، نقول: إن الظاهرة الفلسطينية، من ألفها إلى يائها، تحت النظر الأمريكي الإسرائيلي، وأنهما يقومان بترتيب الوضع الفلسطيني على مقاسهما، وبما يحقق أهدافهما؟

هل نستيقظ من هُراء الوهم الذي يغُلّف بصيرتنا، أم نستمرئ ما يحدث في أحشائنا، ونعتبر أن أصابع أمريكا وإسرائيل فينا ليس أكثر من إحساسٍ خاطئ؟

إن كل ما تفعله إسرائيل، وفعلته فينا، وكان باهظاً وثقيلاً وحارقاً، لن يجديها في إلغائنا أو تركيعنا، وربما يؤجّل ثورتنا الآتية، ويُبعد الانتفاضة القادمة عدة سنوات، لكن الحق الفلسطيني لا يمكن، ومن المستحيل

التخلي عنه. بل إنّ ما تفعله دولة الاحتلال يزيد حالات الكراهية والعداء والحقد أكثر مما يجعل الفلسطينيين لقمة سائغة يسهل هضمها واستيعابها. وإن كل هذه المهانة وهذا الاستعباد والإذلال الموجّه من أمريكا وإسرائيل للعرب والمسلمين سيكون تراكماً نوعياً يسارع في اشتعال مرجل الغضب والثورة القادمة، ولن تظل شعوب أمتنا على صمتها، ذبيحة مُستسلمة خانعة، مهما كان فعل استراتيجيات قمعها وتغريبها وتجهيلها وتقسيمها، بل إن ما تقوم به إسرائيل يؤكد عدمية جدوى التطبيع معها، ويؤكد أبدية الصراع معها، ما دامت دولة احتلال وقمع وموت وعنصرية، أمّا إذا تخلت إسرائيل عن مهمتها الوظيفية وفقدت عنصريتها، فأهلاً بها، رغم أنها لن تكون ساعتها قائمة.

ستة أشهر على الاجتياح وإعادة الاحتلال، وعامان كاملان على هذه الانتفاضة، وثمة شروخ نفسية عميقة أصابت النفس الفلسطينية، وأعيتها مظالم وظلمات، وثمة تراكمات سوداء ستحتاج، من الآن، إلى بحث معمّق وعلاجات وترميمات، ينبغي توظيف كل الآليات والتقنيات والنظريات لإتمامها. وثمة خطايا كان أوضحها أن قوات الاحتلال الإسرائيلي اقتحمت معظم المدن الفلسطينية وسيطرت عليها خلال دقائق معدودة، وصادرت الأسلحة وحياة الناس وإنجازاتهم، والغريب الذي يثير الريبة أنه لم تتم محاسبة أحد من المسؤولين عن كل ذلك، ولم يسأل أحد عن غياب الخطط، وترك الناس كالمياه الدافقة بلا قنوات وسدود؟ لقد فاض دم كثير، وخسرنا ما لا يمكن إحصاؤه، وسيظل السؤال شاهراً إصبعه في وجه الريح والتاريخ:

لماذا؟ وأين المسؤولون والقادة الفلسطينيون؟ وأين خططهم؟

الفساد وأسبابه

أما ما يُسمّى الفساد، فلقد كان ممكناً، بكل تأكيد، إجراء الإصلاحات المُلحة في بناءات السلطة الوطنية الفلسطينية، كضرورة حيوية وشرط أوّلي أساسي لتحصين الذات والمناعة لرفع حالة الأهلية لمواجهة الحرب الخارجية، وسدّ الثغرات الجوّانية والشقوق المريبة، على قاعدة أن الإصلاحات مطلب فلسطيني أولاً وأخيراً، وأن الإصلاحات مسألة تنهض على قاعدة استراتيجية النقد والنقد الذاتي، بصورة دائمة وغير موسمية، وبصرف النظر عن اشتراطات الآخرين ومطالبهم.

بمعنى: ينبغي أن تتم الإصلاحات الفلسطينية بما يتناسب والمصالح الفلسطينية والخصوصية الفلسطينية، وليس كما يريدها الآخرون منسجمة وعلى حجم مصالحهم وأهدافهم السيئة. وعلى الداعين إلى الإصلاح أن يكون ذلك هاجسهم الدائم، وليس تماهياً مع هذه الموجة، لتحقيق أهداف شخصية أو خدمة لارتباطات إقليمية أو دولية مشبوهة، أو تشفياً، أو آلية من آليات التعويض، أو خطوة استباقية، أو التقدم إلى الوراء!

لقد ارتفعت الأصوات المنادية بالإصلاح فجأة!! كأن مظاهر تمزيق الذات كإحدى تجليات الهزيمة والتراجع لم تكن بائنة. وكأن حالات الإثراء والاتّجار بكل شيء لم تكن واضحة، وكأن مشاهد التنافس والتقاطع والتعويم المالي والانحراف عن الأهداف لم تكن نافرة!

فجأة، يطالب الجميع بالإصلاح. حسنا! السلطة أيضاً، أية سلطة في الأرض، تستطيع أن تفيد من دعوات الاصلاح، وأن تعيد ترتيب نفسها،

دون أن تعالج الفساد بصورة استراتيجية، بقدر ما تقوم بعمليات تجميل شكلانية، وتدّعي أنها أصلحت، بعد أن تكون قد تخلّصت من كل المعارضين وبعض العقبات!!

إذاً، ما هو المطلوب؟ المطلوب وجود نظام متكامل، مبني على استراتيجية ورؤية، لأن النوايا الطيبة لا تكفي، ولكي نحمي الفرد (العادي والمسؤول) من الآخرين ومن نفسه، شرط أن ينبني النظام على قاعدة الثواب والعقاب، ومبدأ المساءلة ومن أين لك هذا، ووجود أساس يتم بموجبه وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، على أن تتم عمليات استبدال وتنقّل المسؤولين كل ثلاث أو أربع سنوات، وأعني، بالضرورة السفراء وقادة الأجهزة والمواقع، وإجراء تبدلات في السلّم الوظيفي، بشكل عام، دون أن يؤثر ذلك على تراكم المعرفة والخبرات. وأن يكون هناك فصل فعلي وحقيقي للسُلطات الثلاث (التنفيذية، التشريعية، القضائية) وألا يكون منصب الوزير أبدياً دائماً، وألا يجمع أي مسؤول أكثر من مسؤولية أو مهمة أو ملف، وأن يتم فصل اجتماعات كل الأطر القيادية، وأن تكون لها مرجعياتها وأنظمتها وقوانينها، بعد أن تتم عملية دمج كل المؤسسات الفرعية الناتئة بالمؤسسات الكبرى ذات الاختصاص، وأن يبدأ العمل بقانون الخدمة المدنية والتقاعد، وإنشاء المجالس المطلوب توفّرها وإلغاء الوزارات البائدة. وعلى السلطة الوطنية أن تدعو إلى تسجيل كل القوى والفصائل كأحزاب رسمية، لها نظامها وطرائق عملها ومساحاتها ودورها الفاعل، والاتفاق على حدود فعلها ووضوح علاقاتها، لنفي أيّ تعدد أو تداخل للسُلطات، وعلى السلطة أيضاً أن تدعو إلى انتخابات رئاسية وبلدية وتشريعية، وتبدأ الإعداد لهذه

الانتخابات التي ينبغي أن تتمتع بالنـزاهة الكاملة، وأن تنهض على قانون تشريعي بعيد عن العشائرية والطائفية، بل على التمثيل الحزبي النسبيّ.
وفي حالتنا الفلسطينية لا بد من تسمية لجنة خاصة تتولى كل عمليات الاتصال والتفاوض مع الطرف الآخر، بدءاً من التفاوض على القضايا اليومية، وانتهاءً بقضايا الحلّ النهائي، شرط أن يكون أعضاؤها مؤهلين سياسياً، وقانونياً، وجغرافياً، ومحصنين وطنياً، ولا يقومون بألف دور آخر، يشتتهم ويربك أعمالهم، ويفقدهم صدّقيتهم، أو يورّطهم في شبهات ومصالح، أو غير ذلك.
وبالتأكيد فإن غوائل الاحتلال وسياساته المهولة التي يمارسها على ثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطيني في الضفة والقطاع، من حصار وعزل وضغط وتقتيل وتهديم واستباحة شاملة، تمثل الآن السبب الرئيس الذي يحول دون تطبيق تلك الاقتراحات، والذهاب باتجاه ترجمة برنامج الإصلاح، إنْ وجد، أو توفرت الرغبة في إيجاده وتمريره.
إن قيام السلطة الوطنية الفلسطينية على أرض ومجتمع لم يحكم نفسه منذ خمسة قرون، على الأقل، وتعرّض لعمليات تفريغ من محتواه الحضاري والوطني والثقافي، وتولّي هذه السلطة الغضّة للقيادة وأمامها هدفان كبيران: استكمال تحرير الأرض أو تخليصها من الاحتلال، واستكمال بناء مجتمع مدني ودولة، دون توفر القوانين والتشريعات اللازمة، وفي ظل توفر إمكانات محدودة واشتراطات صارمة ومحيط غير مريح، كل ذلك أدّى، بالفعل، إلى وجود تربة خصبة لما سُمّي، لاحقاً، بالفساد. إضافة إلى أن القوى الكبرى المتحكمة في منطقتنا لا تريد سُلطة ناصعة البياض، يحكمها القانون والضبط والربط، لأن

مصلحة تلك القوى تكمن في وجود سُلطة تعيش في وسط يعاني من التعويم المالي والإداري، ليصل إلى التعويم السياسي، ما يفسر أن تلك القوى ساعدت على الفساد وعلى ترويج حالات التعويم، عبر المؤسسات غير الحكومية، وفرض شروط المساعدات، وشراء الذمم. مع العلم أن المحيط العربي يغرق حتى أذنيه في الفساد والتعدّي على الحريات، مدعوماً من القوى الكبرى، وبهذا فنحن لسنا البؤرة الوحيدة التي تعاني من الفساد، رغم تقدمنا الظاهر في الحريات على غيرنا.

ثم إن أية سلطة حاكمة، بالضرورة، تحاول أن تخلق طبقتها التابعة لها والمدافعة عنها، وتربط مصالح هذه الطبقة بوجودها الشخصي والفيزيائي، وهذا ساعد على بعض الفساد، كما أن وضع أشخاص غير مناسبين وغير مؤهلين في مواقع ذات حساسية وأهميّة دفع باتجاه مراكمة الفساد، عدا أن السلطة التشريعية لم تستطع أن تنجز القوانين والتشريعات المطلوبة والأساسية، ليبدأ العمل وفق هذه القوانين التي تضع الحدود والفواصل، وتوضّح المهمات والأدوار، وبالتالي تُلغي التداخل والميوعة والتعويم والصيد في مناطق التقاطع، خصوصاً أن السلطة، ومنذ البداية، ظلت صامتة أمام حالات الفساد الإداري والمالي والسياسي، ولم تُطبق سريعاً مبدأ المحاسبة وأخذ المخطئ بخطاياه.

علاوة على ذلك ثمة أسباب جوهرية أخرى تتعلق بالفساد، منها أن الكثير من الاتفاقات الاقتصادية والسياسية التي أبرمت مع الاحتلال لم تكن في صالح الفلسطينيين، بل عمّقت حالة التراجع والخذلان، إضافة إلى أسباب موضوعية تتعلق بانهدام جدران كثيرة في أرض القيم الأخلاقية، هنا، في فلسطين، يرجع بعضها إلى انكسار عوامل التربية وإنتاج الفرد-

المجتمع، ويرجع بعضها الآخر إلى أن السلطة تَستنفِرُ أسوأ ما في البشر من نوازع ورغبات وغرائز.

ولا أعتقد أن هذا المناخ الموبوء بالاحتلال الذي يراقب كل شيء، فيغذّي الفساد، ويقضي على النماء والإيجابية، ومعه أذرعه وإمكاناته، يمكن مواجهته بظواهر صوتية أو انفعالية. كما لا أعتقد أن وصفة الملك الفرنسي الذي جمع كل بطانته الفاسدة في قلعة، وقدّم لها طعاماً مسموماً قد تصلح لنا، رغم أنها شافية. وربما لا أميل إلى ما فعله الخليفة المزدهي هارون الرشيد بالبرامكة سجناً وقتلاً.. ينفع الآن، رغم جدوى سيف حاجبه النظيف مسرور. أو ما فعله محمد علي باشا بالمماليك.

إن ما يجدي الآن، هو وجود نظام كامل.. ليس إلا. والحكمة - دائماً - لا تعني شيئاً دون القوة.

مقطع يومي

اليوم، مثلاً، السابع عشر من أيلول 2002م، يوم ذكرى صبرا وشاتيلا، الذي أغرق العالم في دمه البريء وعاره الكبير، أربعة آلاف جثّة لكل أصناف الفلسطينيين، قُتلوا بدمٍ بارد ومع سبق الإصرار والترصد! بعد أن أُغتصبت الفتيات والصبايا، وبُقرت بطون الحوامل، ورأى الصغار آباءهم يُذبحون كالدجاج. في مثل هذا اليوم، يحق لنا أن نجوح مثل النمور، ونغضب. ويحق لنا أن نشير بكل الأصابع إلى هذا الكوكب الأعمى الذي هدر دمنا وراح يتفرّج، وظل القاتل حراً. ويحق لنا ألاّ نسمع إلاّ خرير دم القتلى وهو ينزّ من أضلاعهم وسحجات جروحهم الواسعة.

وينبغي علينا، ليس ألاّ ننسى ونسامح فحسب، بل ونمنع، بكل ما أوتينا من قوة، ألاّ تتكرر المذابح، ونكون نحن الذبيحة الأسهل.

وفي هذا الشهر، أيلول، اقتحم الجزّار شارون دمنا في صبرا وشاتيلا، مثلما اقتحم المسجد الأقصى في الشهر نفسه، لكنه سينكسر حتماً في شهر فلسطيني قريب.

اليوم، أيضاً، هو يوم «كيبور» اليهودي، أحد أعيادهم التي ندفع ثمن فرحتهم فيها إغلاقاً وموتاً وجوعاً ومهانة. فإذا جاء يوم عيد لليهود، فالإجراء المتّبع هو فرض نظام حظر التجوّل على كل المدنً والقرى والمخيمات الفلسطينية، وبهذا يكون ثلاثة ملايين ونصف فلسطيني محشورين في خزائن بيوتهم وعلبهم الحجرية والزنكية، وإذا أطل أحدهم برأسه، فالرصاص والقنّاصة والموت.

منذ ليلة الاجتياح 28/ 3/ 2002 حتى اليوم 17/ 9/ 2002م، أي منذ ستة أشهر، يكون جنود الاحتلال قد اجتاحوا الأراضي الفلسطينية ثمانياً وثلاثين مرّة، يدخلون ويخرجون، يستبيحون سويداء المدن والبلدات والمخيمات، ثم يُعلنون للعالم أنهم انسحبوا، وهم بالفعل قد انسحبوا من قلب المدن وربضوا بآلياتهم وكامل عتادهم حول المدن وفي الضواحي، وخلال ثلاث دقائق يعودون ويستبيحون.

ويبدو أنهم ملّوا هذه اللعبة – السحّاب، فقرروا المكوث الدائم، فأعادوا احتلال الأراضي الفلسطينية بشكل كامل، وتمترسوا في البنايات والمدارس وعلى أسطح البيوت، وعلى المفارق، وفي نهاية وبداية كل طريق، وثمة رصاصة غليظة في بيت النار.

هذا اليوم هو الثالث والخمسون على التوالي المفروض فيه منع التجوّل

على رام الله وضواحيها وقراها ومخيّماتها، مثل باقي المدن الفلسطينية دون استثناء. غير أن نابلس، مثلاً، يُفرض عليها منع التجوّل بصورة متواصلة دون انقطاع منذ ثمانية وسبعين يوماً، وجنين منذ ثلاثة وستين يوماً، وطولكرم منذ واحد وستين يوماً، وقلقيلية منذ خمسة وخمسين يوماً، والخليل أو نصفها الذي ما زال محتلاً أصلاً، منذ مئة واثني عشر يوماً، ربما يسمح الاحتلال بفكّ المنع بضع ساعات، لكنه سرعان ما يفرضه بالرصاص والقنابل والشتائم المقذعة، عبر مكبّرات الصوت.
نستيقظ متأخرين، الشوارع خالية، ولا صوت يندّ في الطرقات، غير صرير عجلات الدبابات، وزعيق الأبواق، وصدى قنابل الصوت، والدخان، ورشّات متقطعة من البنادق هنا.. وهناك، تتجاوب بين ساعة وأخرى. ربما حاولنا، بكل الطرائق، أن نكسر الرتابة وروتين ساعات الرمل الخانقة، تتناول فنجان القهوة، وتمجّ سجائرك، وتتكلس، كالصنم، أمام التلفاز الذي يضربك على صدغيك بشواظ سياطه وتحذيرات الإدارة الأمريكية أو تصريحات قادة الاحتلال، وتشعر بأن رمانة صدرك ستنفرط أو تنفجر وتُصاب بأزمة قلبية، ويضيق قفص صدرك حين تسمع بعض المسؤولين العرب الذين سيشاركون أمريكا في ضرب العراق!!
تبدل وجه الشاشة الصغيرة، وتبحث عن قناة فضائية أخرى، فتطالعك رقصات خليعة وأغان فاقعة وإبهار بصري سطحي ثرثار.. ولولا بعض الكلمات العربية لاعتقدت أن هذه الأغاني قادمة من عمق مرابع الليل الغربي الغريب العاري. ربما تكون تلك الأغاني منسجمة مع طبيعة الغرب وخصوصيته، بل هي ابنة مكانها وزمانها وناسها، لكنها، بكل

تأكيد، ليست منّا، ولسنا منها، وتضغط على «الروموت كنترول» بحثاً عن قناة أخرى فتأتيك أخبار سقوط شهيد هنا، وهدم ثلاثة بيوت هناك، واعتقال خمسين! ثم تلفحك برودة تصريح لمسؤول يردّ بأناقته النسائية على إجراءات الاحتلال المجنونة التي تفوق التصوّر، بالكلمات نفسها، وبالنغمة التصالحية النذلة ذاتها، تلتقط صحيفة «بايتة» منذ ثلاثة أيام، تتصفحها، فلا تجد شيئاً غير أخبار ملكة جمال سويسرا، والهندي الذي ينام على المسامير مدّة جعلته يدخل كتاب «جينيس» للأرقام القياسية، وكان حرياً بالصحيفة أن تُرشّح أكوام القمامة المتراكمة في المدن لكتاب «جينيس» هذا، لمنع البلديات من جمعها منذ شهرين، ويفهق أمامك عنوان يقول إن تكاليف الحرب مع العراق ستكلف أمريكا بين مئة ومئتي مليار دولار! تخيلوا، لو صرف هذا المبلغ لمحاربة الأمراض والفقر والنهوض بالمجتمعات المتخلّفة، كيف سيكون وجه العالم؟ وثمة خبر عن رجل من اليمن تزوّج امرأة صمّاء بعد أن ملّ من صراخ زوجته، جنباً إلى جنب مع خبر يصرح فيه رئيس أركان جيش الاحتلال حول نية إسرائيل الاستمرار في عدوانها السافر، وصفحتين للرياضة الغربية، وصور بعض الموتى، ومقالات مكرورة، أفضلها يشبه ماء الشتاء الجاري، لا يُسبب النجاسة، لكنه لا يصلح للوضوء. ونلاحظ خبراً يفيد بأن أكثر من مئة ألف رضيع مهددون بالأمراض بسبب عدم تلقيحهم وتطعيمهم بالطعوم اللازمة.

وترى عدة مقالات مترجمة حرفياً عن الصحافة الإسرائيلية. . ترجمة حرفية!! فنحن في هذه المقالات «مخربون» و«إرهابيون» و«أولاد كلب». وتستقر عيناك على الصفحة الأولى فترى اللّغة المُهذبة جداً تجاه

الاحتلال الذي تصفه الصحيفة بالقوات الإسرائيلية وليس بقوات الاحتلال، وتقول الصحيفة وزير الدفاع الاسرائيلي بدل وزير الحرب أو الجيش، وتقول الصحيفة الفلسطينيين وليس الشعب الفلسطيني – ثمة هندسة مُعدّة سلفاً لبناء كل شيء – ولكن لا بأس ثمة خبر صغير في صفحة داخلية مفاده أن قوات الاحتلال ستقتحم المعتقلات والسجون التي تحتوي على تسعة آلاف معتقل!!

وهناك تقرير عن صور الإذلال التي يمارسها جنود الاحتلال على الحواجز، وصورة عروسين يقطعان الحاجز مشياً.. بين البنادق!

وصورة امرأة تحمل ابنها الذي مات مسافة ثلاثة كيلومترات، باكية مهدودة!!

تلقي الصحيفة جانباً، وتحاول أن تفتح كتاباً لتقرأ، أو تجد فيلماً معقولاً لتزجي ساعتين من هذه النهارات التي لا تنتهي حصاراتها. تجري بعض المكالمات الهاتفية مع الأهل هناك، ومع بعض الأصدقاء هنا، الأخبار نفسها، والضجر ذاته، والقهر والجوع والجنون يزداد ويزداد، وعند المغرب يجتمع رجال الحارة في أحد البيوت، يؤدون صلاة المغرب والعشاء جماعة، ليبدأ مسلسل النميمة البريء، أو الانتقاد السطحي أو التحليل السياسي العجيب! فالأحاديث نفسها، والضجر نفسه، والقهر يزداد ويزداد، والشكوى يعلو أوارها، والكراهية والرفض تلمسهما بيديك، ثم يجدون في أخبار أمريكا والعراق مادة دسمة ليصبّوا جام غضبهم على أمريكا والأنظمة العميلة والعرب النائمين والمسلمين الغائبين والعالم المتآمر الصامت المريب. وفجأة يصمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير مدة لحظات، ثم يعود الحديث الصاخب المتداخل

البسيط، بعد أن تيقنوا أن ذلك الصوت هو لرتل الدبابات والدوريات التي تجوب المدينة والضواحي كل ساعة وأخرى. قد يقتحمون البيت إذا أحسّوا أن ثمة تجمعاً ينعقد داخله، وعندها سيتم اعتقال الشبان الذين تحلّقوا للعب الشدة «الورق»، أو بعض الرجال الذين لهم أسبقيات في النضال والسجون، وبالتأكيد سيحطّمون البيت، ويفزعون الأطفال ويعتدون على النساء، وإذا ا تجرأ أحدنا وحاول منعهم من فعل أيّ شيء فسيتم طرحه على الأرض بعشرات الطلقات، والمبررات جاهزة، ولا مَنْ يسأل!

والحقيقة أننا، نحن الجيران، اكتشفنا بعضنا البعض، وتعرّفت النسوة على خبرات جديدة وأخبار طازجة، رغم أن مستوى الضيافة قد تراجع، في كل البيوت تدريجياً، بسبب الأوضاع الاقتصادية، والحرص على عدم الإسراف خوف أن يطول منع التجوّل. والملاحظ أن الحواكير الصغيرة وقطع الأراضي المحيطة بالبيوت قد أعيد لها بهاؤها فتمت زراعتها بالخضار والقثائيات وما تيسّر، وانشغل أصحابها فيها ساعات وساعات. وراح بعضنا يتحسس ما أرجأه من أعمال ليقوم بها وينتهي منها، في البيت أو على مستوى القراءة أو الكتابة أو ما يتصل بعمله وتخصصه.

وفي الأيام الأولى من الاجتياح ومنع التجوال، لم يكن الناس قد توصّلوا إلى هذا المستوى من نقد السلطة والتعرّض للشخصيات المُتهمة بالفساد والتخريب، وللأجهزة التي لم تمنع أصابع الاحتلال وعملاءه من اقتناص الشرفاء وقصفهم أو اعتقالهم، ولعلّي اكتشفت أن كل شيء مكشوف أمام الناس، ومن الصعوبة التمويه على الشعب أو منعه من قول ما يريد، ألا يقولون: ألسنة الخلائق سيوف الحقائق!

وبالرغم من ركاكة الفكر أو البراءة والسطحية التي تلمسها لدى عامّة الناس، فإنهم أذكياء، يمتلكون بوصلة لا تخطئ، ويدركون الحدّ بين الصحيح والمعطوب، ويميّزون بين الخطأ والصواب، وقلوبهم الشجاعة تدلّهم على الطريق القويم.

إن الناس مثل المياه تماماً، طاهرة نقية، تخلق الحياة، غير أن المياه بحاجة إلى سدود وقنوات وتصفية «فلترة»، وإلى تخزين، حتى تظل مفيدة نقية. أما إذا تُركت المياه فإنها تصبح كالطوفان الذي يدمر كل شيء، وإذا استقر في مكان يصبح آسناً مضراً. ولعل دور أية سلطة يتمثل في حفظ هذه المياه وتمريرها في قنواتها النظيفة، وضمن خطة وبرنامج ورؤية.. وإلا!!

أما النظرية القائلة بأن قمع الشعوب وتكبيدها الخسائر يؤدي إلى تركيعها والسيطرة عليها، فهي نظرية خاطئة فاشلة، عدا كونها عنصرية ولا تتمتع بأية قيمة أو أخلاق، ولا يبررها منطق. فالناس هنا، وكلّما كوتهم نار الاحتلال، أو مزّعتهم طائراته ومدرعاته وجاعوا وسفكوا الدمع وامتلأوا بالفواجع، تمسّكوا أكثر بحقوقهم وثوابتهم، وأدركوا بالفطرة أنهم لم يخسروا ويضحون بكل ذلك ليحصلوا على الفتات أو العدم.

ربما يضيق الناس ذرعاً، ويصيبهم بعض التعب، ويعانون من نقص حيوي أصاب حوائجهم، وعندها ربّما يتبرمون ويدعون المسؤولين لتخليصهم من هذا العذاب الذي لا يحتمل.. لكنهم، إذا ما استشعروا أنهم سيخسرون أبجدياتهم وحقوقهم الأولى، فإنهم ينسون جوعهم ودمعهم وجراحهم، وينتفضون كالسباع المجروحة في أبنائها وقلوبها وكراماتها وأعراضها وبيوتها.

إن النتيجة الأكيدة الصريحة الواضحة التي تَخَلُص بها من كل ما يقوله الناس، وما يسلكونه ويفعلونه هو أن الاحتلال يورّث الكراهية، ويعمّق الحقد والنقمة، ويولّد الثأر وردود الفعل الحادّة، ولا يمكن أن يؤدّي إلى نتيجة أخرى، على الإطلاق.

كما أن أفضل الطرائق وأقصرها وأجداها لحكم الناس ومُسايستهم هو العمل من أجل تحقيق أهدافهم وأحلامهم، وفتح مساحات أكثر اتساعاً لهم، ومصارحتهم وإشراكهم، ومخاطبتهم بما يحتاجونه، دون مواربة أو مخاتلة أو ادّعاء أو حذاقة لن تفيد، ولن تفيد.

ولعلك تلمس لمس اليقين، ليس فقط انعدام الدخل واقتراب الفقر، بل الإتيان على المدّخرات المتواضعة، التي كانت تمثل سلة أمان واحتياط أبيض لهذه الأيام السوداء. وعند الحديث عن المساعدات الواردة للأسر المعدمة، فإنك تصاب بغثيان وقهر أمام تفاقم الحاجة، وعدم وصول شيء ذي بال. فما تم توزيعه هو «ربطات» من الطحين والسكر والرز والزيت، على عدد ضئيل لا يتعدى الخمسة بالمئة من مجموع المعوزين، وتم توزيع ذلك مرتين فقط، بمعنى أنه لا توجد مأسسة لتوزيع المساعدات التي يكثر الحديث عنها ولا يراها الناس، ولا توجد كيفية واضحة وعادلة لتوزيع المساعدات العينية والمادية على المحتاجين، رغم الحقيقة الناصعة بأن كل المساعدات القادمة إلينا لا تكفي عُشر الاحتياجات اليومية للناس، عداك عن ما تحتاجه السلطة ومؤسساتها المختلفة لإعادة ترميم وبناء ما تم تهديمه، ولإيفاء المصاريف الجارية التي تحتاجها العملية التعليمية والصحية والشؤون الاجتماعية. ولهذا، ليس مفاجئاً أن تراكمت ديون فواتير الماء، والكهرباء، والهاتف، ما أوقع البلديات والمؤسسات في

حرج ووضع لا تحسد عليه، مثلما وجد هؤلاء الناس أنفسهم أمام مذلة الحاجة وهموم الديْن الثقيلة.

والمفارقة المفضوحة تكمن في أن الحديث عن فساد السلطة تتخذه معظم الأطراف العربية الغنية ذريعة لكي لا تقدم الإسهام الواجب عليها لنصرة الشعب الفلسطيني، الذي يدافع بدمه عن مقدسات الأمّة وكرامتها في اللحظة التي فيها يتم تقديم المليارات، ومن دون حساب، لجهات غير عربية، ولخدمة أهداف معادية، أيضاً.

وربما تجدر الإشارة إلى أن نهارات الحصارات المتتابعة تدفعنا إلى تلك المشيات الرياضية، لنحرك أجسادنا ونظل في لياقة مقبولة، وخلال المسير محدود المسافة أو الدائري تلمح الصغار الذين يطلقون طائراتهم الورقية في السماء، ومعظمها قد اتخذ شكل العلم الفلسطيني، ما أغاظ جنود الاحتلال الذين راحوا يطلقون رصاصهم المتخبط في أعقاب تلك الطائرات، فيضحك الرجال الذين يذرعون الطريق، أو النساء اللواتي انضممن إلى هذه الرياضة على خجل، رغم أن بعض الرجال اقتعد رصيفاً، وراح يدرج سجائره بعد أن تخلى عن شراء علب السجائر باهظة الثمن.

وما يلفت الاهتمام رقاع الدعوة لحضور حفلات الزواج على تواضعها، حيث يحدد أهل العروسين موعداً، ثم يُثبّتون جملة باتت تتكرر في كل رقاع الدعوة، وهي: إذا صادف هذا التاريخ يوم إغلاق فإنه يتم إرجاء حفل الزواج إلى أول ساعة من رفع التجول في المكان نفسه.

وقد تلحظ سيارة مسرعة قادمة من مكان بعيد فتعرف أن ثمة من يكسر نظام منع التجول ويتنقل من حارة إلى أخرى، ويصبح بذلك دليلاً

للآخرين الذين يتجرأون على توسيع مناطق تحركهم وتجولهم، ويصدف كثيراً أن يصطدم هؤلاء بدوريات الاحتلال التي تذيقهم أصنافاً «معتبرة» من الشبح واللطم والركل والحجز لساعات أو لشهور.
غير أن سيارات الإسعاف ومركبات الصحافيين تستطيع، غالباً، التنقل ما زاد عدد سيارات الإسعاف التي بات لها مهمات جديدة، منها إيصال الخبز لـ«المقطوعين»، وما شابه من خدمات إنسانية تصل أحياناً إلى نقل العروس إلى بيت العريس.
وتتعقد أمام الناس فرصة السفر إلى خارج المدن، بل أصبحت مستحيلة، وعليه فإن المضطر للسفر إلى الخارج سيجد نفسه أمام مغامرة مميتة يضطر معها إلى قطع عدة كيلومترات مشياً على الأقدام، أو استخدام وسائل النقل الجديدة (الحمير، والبغال، والعربات اليدوية)، وغالباً ما تفشل تلك المحاولات بسبب رصاص الجنود الذي يطاردهم، وهم بين الوحل أو تحت الشمس الحارقة والغبار الخانق، عداك عن مأساة السفر عبر المعابر من رفح أو أريحا، وما تحتاجه تلك المعابر من إجراءات جنونية ومذلة، إضافة إلى ما تكلفه تلك التنقلات من نفقات باهظة إضافية وحالات استغلال لا تخلو منها الحياة.
إن تصويرنا مقطعاً يومياً لا يمكن أن يفي القارئ أو يكون بديلاً للحالة المعيشة التي نحياها هنا في فلسطين، محاصرين باحتلال تدرّج في ممارساته التي بدأت بإطلاق قنابل الغاز والرصاص المعدني حتّى وصلت إلى استخدام طائرات الـ اف 16، وإعادة احتلال كامل الأراضي الفلسطينية مع حصار وعزل وتجويع واعتقال وهدم وإذلال، بمعنى أن الاحتلال تناول البناءات الفلسطينية بناء تلو الآخر، وراح يهدمها واحداً

تلو الآخر. ثم إن الاحتلال وبعد أن سيطر أفقياً على كل شيء، راح يعمق تخريبه عمودياً في كل مناحي حياتنا الفلسطينية. إنه الاحتلال يعني.. إنه الموت التام.

جدار فصل عنصري

بخلاف ما تروّج له سلطات الاحتلال الإسرائيلي بشأن موعد البدء في المرحلة الأولى من مشروع «الجدار الفاصل» بين أراضي الضفة الغربية وأراضي فلسطين المحتلة العام 1948، والذي تقرر بعد الاجتياح، فإن العمل على الأرض بدأ منذ شهور طويلة، من خلال إقامة الأسيجة وحفر الخنادق في عدة مواقع شمال الضفة الغربية على امتداد الخط الأخضر، باتجاه الشرق، وحول مدينة القدس.
وكعادتها، تعمد سلطات الاحتلال إلى قطع شوط طويل في تنفيذ أي مخطط توسعي جديد، قبل أن تعلنه رسمياً، وفي الوقت الذي تراه مناسباً، الأمر الذي يتيح لها مجالاً اكبر في المراوغة وتضليل الرأي العام العالمي، وربما إزاحة الأنظار عن قضايا أخرى لا تقل أهمية.

وتشير الوقائع والمعطيات على الأرض إلى أن العمل في إقامة هذا الجدار الذي سيمتد في مرحلته الأولى لمسافة 110 كم من شمال غرب جنين وحتى منطقة قلقيلية جنوباً، بدأ منذ العام الأول لتسلم أرئيل شارون الحكم في إسرائيل، حيث بدأت قرارات المصادرة للأراضي الفلسطينية بالتوالي، وتشمل عشرات آلاف الدونمات في محافظتي جنين وطولكرم من الجهة الغربية المحاذية للخط الأخضر.

غير أن مشروع الفصل هذا يعود ليس إلى شهور، بل إلى سنوات طويلة، وتحديداً إلى عهد رئيس وزراء إسرائيل اسحق رابين، حيث بدأ في العام 1996 إقامة جدران إسمنتية بين أراضي الضفة وداخل الخط الأخضر في منطقتي قلقيلية وطولكرم، غير أن العمل توقف في المشروع في حينه، وفقاً لما ذكره خبير الخرائط وشؤون الاستيطان في «بيت الشرق» خليل التفكجي.

وحسب التفكجي، فإن هذا المشروع يرمي إلى استباق المرحلة النهائية والعمل على إقامة حدود جديدة بين الدولة الفلسطينية و«إسرائيل»، من جانب واحد، ووفقاً للرؤية الإسرائيلية، ودون أخذ رأي الفلسطينيين في هذه القضية.

ويبرز نوع من الخلافات الشكلية بين الإسرائيليين على هذا الصعيد، والتي لا تخرج على نطاق تقاسم الأدوار بين المتشددين والأكثر تشدداً، إذ يرى البعض أن هذا المخطط، والذي سيمتد في مراحله النهائية على طول 350 كم، يهدف إلى رسم حدود بين دولة إسرائيل ودولة فلسطين، وهو ما لا يقبله بعض المتشددين، خاصة المستوطنين، والبعض الآخر يزعم أنه مجرد «جدار أمني» وليس سياسياً بهدف منع الجهات الفلسطينية «المعادية» من شن هجمات على أهداف إسرائيلية داخل الخط الأخضر، وهو ما لا يتفق معه الفلسطينيون الذين يرون فيه مخططاً توسعياً جديداً يرمي إلى إعادة رسم الحدود الفاصلة بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية، أي إقامة خط أخضر جديد، يترتب عنه مصادرة مساحات تقع بمحاذاة الخط الأخضر. ويرون فيه جدار فصل عنصرياً، يضاف إلى «الباندوستانات» أو «الكنتونات» الضيقة المغلقة التي هي المدن الفلسطينية المحاصرة.

وتلجأ إسرائيل إلى عملية تضليل وخداع بإعلانها أن الجدار الفاصل سيمتد بين قرية سالم شمالاً وحتى بلدة كفر قاسم جنوباً (بطول 110 كم)، وهما داخل الخط الأخضر باتجاه اسرائيل، وكأنها تحاول أن تصور أنّ الجدار يقام داخل المناطق الإسرائيلية غير أن الحقيقة على الأرض غير ذلك، لأن الجدار سيقام ليس فقط في أراضي الضفة الغربية، وإنما بعمق يتراوح بين 2- 3 كم داخل هـذه الأراضـي من قرية تعنك شمال غرب جنين، وحتى جنوب غرب طولكرم، أي بموازاة الخط الذي تعلنه إسرائيل بشكل مغلوط بين سالم وكفر قاسم، ولكن داخل حدود الضفة الغربية.

ويتكون الجدار الفاصل هذا من خطين متوازيين من الأسلاك الشائكة تفصل بينهما مسافة 17-20 متراً، وتحفر بينهما خنادق بعمق أربعة أمتار وعرض أربعة أمتار أخرى، إضافة إلى طرقات جانبية لسير دوريات الحراسة، وأنظمة رصد الكترونية، إلى جانب بوابات محددة عبر شوارع تصل بين الأراضي الفلسطينية وأراضي الـ48، على غرار البوابات التي تصل بين شمال فلسطين وجنوب لبنان، حيث الدخول عبرها يتم وفق أنظمة أمنية محددة.

يشار إلى أن الأسلاك تقام بشكل هرمي، أي توضع ثلاث «دحلات» دائرية الشكل «رول» كقاعدة، ومن ثم يوضع عليها اثنان آخران، وفوق الاثنان «رول» سادس، حيث تشكل ثلاث طبقات من الأسلاك الشائكة.

وهناك مقاطع من الجدار يشمل على إقامة جدارين متوازيين من الأسمنت بارتفاع ستة أمتار، وتفصل بينهما طرق للحراسة، ومثل هذه المقاطع

تقام في المناطق القريبة من التجمعات السكانية الفلسطينية، مثل قرية حبلة التي تقام على مقربة منها مستعمرة إسرائيلية ملاصقة للخط الأخضر.

ووفقاً لخبير الخرائط في «بيت الشرق»، فإن المسافة بين الخط الأخضر والجدار الفاصل، وفقاً للقرارات العسكرية الصادرة عن جيش الاحتلال، والتي كان آخرها في آذار الماضي تتراوح بين 2- 3 كم، وستترتب عليها مصادرة 80 كيلومتراً مربعاً من أراضي 28 قرية فلسطينية في الضفة الغربية.

وأشار في الوقت ذاته إلى أن 11 قرية سوف تقع بالكامل بين الخطين الأخضر القديم والفاصل الجديد، وهي: رمانة، الطيبة، عانين، أم الريحان، عقابة، برطعة الشرقية، الجاروشية، نزلة عيسى، باقة الشرقية، طورة الغربية والشرقية. وسيترتب على المشروع الاحتلالي الجديد توحيد قرى شطرت في العام 48 إلى شطرين، مثل باقة الغربية والشرقية، وبرطعة الشرقية والغربية تحت نظام الفصل الجديد.

وأوضح التفكجي أن الوضع القانوني لسكان القرى الـ11 وعددهم 26 ألف نسمة، سيجعلهم جالية فلسطينية تعيش داخل إسرائيل، ولا يتمتعون بأي من الحقوق، وسيحتاجون إلى تصاريح خاصة للدخول إلى أراضيهم، وأي شخص يخالف يتم طرده إلى أراضى السلطة الفلسطينية، أي خارج نطاق «الغيتو» الذي يعيش فيه. وأما سكان القرى الذين يعزل الجدار مساحات من أراضيهم، فهم، أيضاً، معازل الأبرتهايد يحتاجون إلى تصاريح خاصة للدخول إلى أراضيهم، وغالبيتها مزروع بالزيتون.

وعن سبب التعامل بهذه الطريقة مع سكان هذه القرى، قال التفكجي: إن هناك اعتبارين دفعا إسرائيل لذلك، أولهما إنها لا ترغب في زيادة عدد السكان العرب فيها، ولهذا تعاملت معهم كسكان، وبناءً على سلوكهم يتحدد إبقاؤهم في قراهم أو طردهم خارجها، وثانياً هناك أسباب اقتصادية، إذ إن أراضي واسعة تقع في نطاق المنطقة العازلة، وهي مزروعة بالزيتون خصوصاً قرى قفين وكفر صور والراس وجبارة وفرعون وغيرها.

ويؤكد التفكجي أن إسرائيل تستغل في مشروعها هذا، الذي - وحتى وقت قصير - يتم بصمت كامل، عنصر الوقت والظروف الدولية الراهنة، والتحالفات التي تقودها الولايات المتحدة ضد ما أسمته «الإرهاب»، إذ تعلن إسرائيل أن مشروعها هذا ينفذ تحت عنوان «محاربة الإرهاب» ومنع وصول «الإرهابيين» الفلسطينيين لتنفيذ هجمات ضد المدنيين الإسرائيليين، وبذلك تضمن عدم إثارة ضجة عالمية، كونها تخرق اتفاقات أوسلو وقرارات الأمم المتحدة، في تنفيذ مخططها التوسعي هذا.

ووفقا للمخطط الإسرائيلي، فإن الجدار سيمتد مسافة 35 كم، ويشمل عزل القدس، أيضاً، عن محيطها بمثل هذا النوع من الجدران، غير أن التفكجي لم يجزم شكل المرحلة التالية من هذا المخطط، وقال: لغاية الآن الصورة على الأرض وفي الخرائط الإسرائيلية إقامة هذا الجدار على امتداد هذه المسافة، ولكن يمكن للمخطط أن يمتد في منطقة سلفيت، ويشمل قرى جنوب قلقيلية وغرب رام الله، لكننا لا يمكن أن نتنبأ بالشكل الذي سيكون عليه الأمر، وإذا امتدت منطقة الفصل في أي

مخططات يعلن عنها لاحقاً لمسافة 15كم باتجــاه مستعمــرة «ارئيل» في منطقة سلفيت فإن الأمر سيكون وفق الرؤية التي طرحها الإسرائيليون في كامب ديفيد الثانية، علماً أن المنطقة يقطنها نحو 35 ألف نسمة.
ربما لن تؤثر كثيراً مشاركة بنيامين بن أليعازر، وزير الحرب الإسرائيلي، شخصياً في حفل تدشين المرحلة الأولى من المخطط الاحتلالي، حيث سيبدأ العمل في كيلومترين منها في شمال غرب جنين، على مجريات الأمور على الأرض، وعلى حقيقة المشروع الذي تكشفت معالمه قبل هذا اليوم بشهور، لأن العمل جار وبوتيرة عالية، وهناك جدران أصبحت قائمة بالفعل وهناك أسيجة وخنادق تمتد على طول الخط الأخضر، وفي محيط القدس، وتعزلها بالفعل عن محيطها الفلسطيني. وأما سكان القرى التي يتهدد وجودها ومستقبلها هذا الجدار العنصري فلا يملكون ما يمنعون به تنفيذ هذا المشروع الذي يحوّلهم إلى غرباء في أراضيهم، ويتلقون يومياً اخطارات وبلاغات عسكرية تقضي بضم المزيد من أراضيهم، وفقاً لما ذكره خالد جبارين، رئيس مجلس قروي الطيبة، الذي قال: إن سلطات الاحتلال الإسرائيلي أخطرتهم قبل بضعة أيام بمصادرة مساحات واسعة من أراضيهم لإقامة هذا الجدار التوسعي.
وللتوسع في هذا الأمر، يمكن مراجعة مركز الإعلام الفلسطيني برام الله، الذي أعانني في كتابة هذا الموضوع.

حِكْمة جائرة

تعرف الدولةُ العبرية جيداً، وأكثر من غيرها، أن الكارثة لا تلد السلام؛ بمعنى أن قمع الفلسطينيين وتجويعهم لن يحقق لإسرائيل الأمن والهدوء

والعيش باستقرار، لسبب بدهي وهو أن لكل فعل رد فعل مساوياً له في القوة ومعاكساً له في الاتجاه، وإن حشر الفلسطينيين في زاوية يدفعهم، بالضرورة، إلى الانقضاض على خصمهم، مهما كانت النتائج، وهذا ما يُفسر، غالباً، توجّه العديد من الشباب لتنفيذ العمليات التفجيرية في قلب المدن الإسرائيلية، والذين لن يمنعهم شيء، وستسقط أمامهم كل الإجراءات الأمنية والحرص والتفتيش واليقظة، فلا توجد قوة تستطيع أن تمنع أحداً يذهب، بكامل وعيه إلى الموت، من تنفيذ ما يصبو إليه، فعندها ستسقط كل النظريات والحيطة الأمنية، مهما كانت بالغة الدقة وصارمة.

أي أن تجاوز هذه الأعمال الدموية العنيفة، يكون بعد معالجة أسباب العنف، والوقوف على مطالب الذاهبين إلى تفجير أنفسهم.

وبصرف النظر عن تلك النقاشات التي تؤيد أو تعارض مثل تلك العمليات، فإن الأكثر بلاغة وأهمية هو دعوة إسرائيل إلى وقف عدوانها وإجراءاتها المميتة ضد الشعب الفلسطيني، فعندها ستتوقف هذه العمليات.

غير أن إسرائيل تطمع، على الأقل، من خلال سياساتها وعقوباتها الجماعية والمضنية ضد الشعب الفلسطيني، في أن تهبط المطالب الفلسطينية أكثر، ويتنازل الفلسطينيون أكثر فأكثر، وبذلك يصبح سقف المطالب الفلسطينية مريحاً للإسرائيليين، على طريق أن يعيدوا قمعهم وإجراءاتهم ضد الفلسطينيين، مرة أخرى، لتهبط مطالبهم مرة جديدة، ويصبح سقفهم أدنى من السقف السابق، وهكذا، حتى يجد الفلسطينيون، تدريجياً، أنفسهم قد تنازلوا عن مسائل جوهرية،

وأصبحت مطالبهم تتعلق بالقضايا الحياتية أكثر مما تتعلق بقضايا استراتيجية وحقوق «كبيرة» مشروعة.

وللأسف، فقد وقع الكثير من الفلسطينيين، وأعني المسؤولين، في هذا الشرك، إذ تطالعنا، بين الفينة والأخرى، أصوات تطالب بالتنازل عن سقف مطالبنا الاستراتيجية (التي لم تعد استراتيجية أصلاً)، وبالذات فيما يتعلق بعودة اللاجئين، أو القدس، أو التنازل عن بضعة أعشار بالمئة من الأراضي التي احتلت العام 1967.. الخ، عداك عن تلك الأصوات التي تطالب بوقف المقاومة أو تقنينها أو اتخاذ خطوات استباقية لصالح إسرائيل لتكفّ عن عدوانها.. ويتم كل ذلك تحت عناوين «الواقعية السياسية»، و«تجنيب شعبنا الأذى»، و«إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، و«الحرص على المقدرات الفلسطينية والمستقبل»، وما إلى ذلك من هرطقات فاقعة مشبوهة، والكثير الكثير مما يقال في هذا الشأن هو كلام باطل يراد به باطل، والقليل منه كلام حق يراد به باطل.

بمعنى أن الخطاب الفلسطيني يجب أن يركز على نقطة واحدة أساسية، وهي ضرورة الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي التي احتلتها في الرابع من حزيران 1967، لأن في ذلك يكمن كل الهدوء والاستقرار والسلام. وإذا أرادوا مفاوضات ينبغي أن تتمحور هذه المفاوضات حول جدولة الانسحاب، وعلى العالم أن يأخذ دوره في ذلك، (نقطة وأول السطر).

إن ذلك ليس تبسيطاً للأمور التي سيدّعي البعض أنها معقّدة ومركّبة وتحتاج إلى «حلحلة» ووقت.. إلخ، ولهؤلاء نقول: إن الشعب الفلسطيني، ومن خلال قيادته، وافق على التنازل عن ثمانين بالمئة من

فلسطين التاريخية للإسرائيليين، وإن الشعب العربي وافق، من خلال القمة العربية الأخيرة، على الاعتراف بإسرائيل، وإن السلطة الفلسطينية تُبدي مرونة كبيرة ومنقطعة النظير للتوصل إلى حلّ مع إسرائيل.
وإسرائيل ترفض كل ذلك، وتضربه بعرض الحائط، فما هو الحل؟ سنوافق أن نوقف المقاومة والعمليات والانتفاضة، فهل ستنسحب إسرائيل وتعطينا حقوقنا؟ وهل إذا رفعنا الراية البيضاء وصرخنا بملء أفواهنا: إننا مستسلمون، فهل ستشفق علينا إسرائيل وستنسحب من أرضنا، وتعطينا دولة وعودة واستقلالاً؟
والسؤال الأهم الذي نوجّهه لهؤلاء المتشدقين المُنظّرين المشبوهين الداعين إلى وقف المقاومة: ما هي الطريق التي ستقنع إسرائيل للانسحاب من بعض أرضنا التاريخية لنقيم عليها دولتنا المُسالمة؟ إذا كان الاستسلام فإنني سأطالب ياسر عرفات به!! وإذا لم يكن الاستسلام، فما هو -خصوصاً أنه ليس المقاومة- إذاً، هل تريدوننا أن نحبس أنفسنا في بيوتنا وننتظر الـ إف 16 والأباتشي والدبابات والمجنزرات لتهدم جدران بيوتنا الباقية على رؤوسا لتقتنعوا، قبل أمريكا والغرب، أننا دعاة سلام؟ أيّ منطق هذا الذي نسمعه، بل أية خيانة وقلّة حياء؟!
والغريب - الذي لم يعد غريباً - أن هؤلاء الكَتَبَة والمنظّرين ودعاة الاستسلام والمهزومين من دواخلهم والمأجورة أقلامهم وألسنتهم قد تناسوا أن هنالك أربعة ملايين فلسطيني في مخيمات اللجوء دون وطن وكرامة وحياة، وتناسوا أننا في سجون كبيرة نذوق فيها العذاب والرعب والهلع صباح مساء، وأن مقدساتنا مُستباحة، وأعراضنا تحت سواطير السجّانين، ودمنا ملأ الدنيا، لكن هؤلاء لم ينسوا - بسبب واقعيتهم

وإنسانيتهم – أن لإسرائيل الحق في الحياة والوجود والدفاع عن ذاتها؟!
وحتى لا يفهمنا أحد بطريقة خاطئة نعلن صراحة أننا مع السلام الممكن الذي يُتيح للفلسطينيين إقامة دولتهم المستقلة على كامل تراب الضفة والقطاع، وتكون القدس عاصمتها دون نقصان، مع حقّ اللاجئين بالعودة والتعويض، وبعد ذلك نحن مع إقامة علاقات ندّية إنسانية مع الدولة العبرية. (نقطة وأول السطر).
ربما ما نعلنه هنا، هو رغبتنا الحقيقية –الآن على الأقل، لكنني – للأسف – على يقين أن إسرائيل لن تستجيب –كالعادة– لرغباتنا، بل ولا تصدّقنا إطلاقاً، وذلك يعود، كما قلنا، لطبيعة إسرائيل ولدورها الوظيفي ولاختلال موازين القوى، غير أن هناك نموذجاً يطيب لإسرائيل – على ما يبدو– تطبيقه علينا، إذا استطاعت، وهو نموذج «باركوخبا»، الحاخام اليهودي «البطل» الذي قدّم حلاً سحرياً لرجل فقير لديه غرفة واحدة وعائلة كبيرة، ويملك بقرة وحماراً وعنزة، ويعاني الرجل من ضيق المكان الذي لم يعد يتسع لعائلته وبهائمه. فما هو الحل يا باركوخبا؟!
قال باركوخبا للرجل أدْخل للغرفة، معك ومع عائلتك البقرة، وتعال لي بعد أسبوع. ولمّا جاءَه الرجل كاد يُصاب بالجنون، لكن باركوخبا قال له: أدخل الحمار أيضاً، وعد بعد أسبوع. ولما عاد كان الرجل على حافة الانفجار، لكن باركوخبا أمره أن يدخل العنزة ويرجع بعد أسبوع، ولما عاد كان الرجل قد فقد عقله، فقال له باركوخبا: اذهب وأخرج البقرة، وارجع بعد أسبوع، ولما عاد قال الرجل لباركوخبا: الآن الوضع أفضل يا سيدي، فنصحه باركوخبا أن يخرج الحمار ويعود بعد أسبوع، ولّما عاد الرجل كانت أساريره ضاحكة، فقال له باركوخبا: اذهب

وأخرج العنـزة، وراجعني بعد أسبوع، ولما راجعه الرجل قدّم شكره وثناءه لباركوخبا.. لأنه حلّ له المشكلة، وصار الرجل يشعر بالراحة التامة والرضا مع عائلته التي تنفست الصعداء!!
لكننا لسنا ذلك الرجل على كل حال، ولن نقبل بحكمة باركوخبا التي أبقت الوضع على سوئه وضيقه.

ياسر عرفات

هذا رجل تختلف الآراء بشأنه، لكننا لا نختلف معه على مواقفه التي يصرّ عليها، والداعية إلى أن يتمكن الشعب الفلسطيني من نيل حقوقه وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.
«ختيار» تجرأ وبلغ الرابعة والسبعين من عمره، له حضور رنّان، وعينان تخترقان الستائر والغبار. متواضع إلى حدّ العاديّة، ومرن إلى درجة الليونة، لكنه لا ينكسر ولا تند عنه نقطة ماء إلا بإذنه وكامل رغبته.
أمضى عمره مناضلاً في سبيل قضية شعبه، ما جعله رمزاً لنضال هذا الشعب ولمسيرته الصاخبة الدامية. وعلى هذا - على الأقل - وحده يستحق التقدير والاحترام، مهما اختلفت معه أو تباينت بينكما الرؤى والمواقف والتقديرات.
يؤمن بشعبه، وباللحظة المكثفة التي يراها وضوح الشمس، وهي انتصاره الأكيد. ليست له أنياب السلطان الحاكم أو مخالب الدمويين؛ يقبل الرأي الآخر، ويتسع للنقد وإشارات الضيق والغضب. في كثير من الأحيان لا تفهمه، ويبدو غامضاً، على وضوحه، خصوصاً فيما يتعلق ببعض

الشخصيات، غير المرغوب فيها جماهيرياً، والتي تُعتبر قريبة منه؟! (يبدو أن الأشجار بحاجة دائماً، إلى سماد.. لتكبر!) لأنه ببساطة، غير مضطر لهذه العلاقة النافرة! يُعطي دون حساب، وقلّما يحاسب. يدخل الوحول، لكنه، يظل نظيفاً، ولا يخفض عينيه، بل يبقيهما معلّقتين في السماء. يحب بوضوح الأطفال والشعراء، ويثق بقدرات المرأة ويقدّمها في مجالسه على الرجال. يبدو لي خجولاً وأقرب إلى التمثال اللحمي الذي لا تظهر عليه ملامح التعب أو الأحمال أو الكوارث التي تحيط به من كل جانب. فيه حياد البروفيل الجاهز، لكنّ علائم الغضب تبرز كل خليّة في وجهه ويديه، وعندها ينبغي الصمت!

لم نكتشف، بعد، أهمية هذا الرجل، ودوره الحيوي، ومعنى وجوده بيننا بالفعل، إنّ الألفة تولّد الاستهتار. أظنّ أن هذا الرجل لا ينام، كما ننام! ليس خوفاً فهو جسور ومشهود له بالشجاعة وثبات قلبه، لكن إنساناً يحمل على كتفيه قضية فلسطين ومقدساتها وشعبها وما يتعرض له، لا يمكن له أن ينعم بحلم خفيف أو بنوم عميق، وهذا يفسر قلّة طعامه، وبساطة مائدته، ومحدودية ملابسه وتعدادها القليل، وغياب الأبّهة عن مكتبه وما يحيط به.

في زهده كبرياء وعمق، وفي صبره متسع لكواكب وأثقال، وفي صدره هدف يتفلّت مثل النبع بين صخور الصوّان. باختصار يريد أن يُصلي في القدس المحررة، ليكتب التاريخ أن القدس التي فتحها عمر بن الخطاب وحررها صلاح الدين -رضي الله عنهما- قد أعاد تحريرها ياسر عرفات، وهذا من حقه، ومن حقه علينا أن نعينه على ذلك، رغم كل ما نختلف معه عليه، حول قضايا، على أهميتها، تبدو ثانوية أمام هذا الهدف العظيم.

خصومه هم، غالباً، خصوم وأعداء شعبه، ومحبّوه شعوب تهتف لفلسطين ولمقدساتها. بل إن أعداءه يسعون إلى توجيه الإهانات إليه، ويعلنون رغبتهم في كسر شوكته وإذلاله، رغم أنهم يعلمون أنه لن يمنحهم توقيعه الذهبي على وثيقة الاستسلام، بل سيمنح هذا التوقيع لاتفاق السيادة والدولة بعاصمتها القدس وعودة اللاجئين. ولن يجدوا أحداً غيره -الآن- يستطيع أن يمهر الاتفاقات، ويثق به شعبه الفلسطيني. لهذا فأعداؤه عاجزون عن قتله، وعاجزون عن ابتلاعه، يريدون التخلّص منه لأنه عقبة كأداء في طريق تسويتهم لقضية شعبنا، ويلّح عليهم لننال حقوقنا المشروعة، بحدودها الدنيا المعقولة والمقبولة.

ولا يريدون التخلّص منه لأنه الوحيد القادر على ضبط الفلسطينيين، وعلى منح موافقتهم على الاتفاقات، لهذا يعذّبونه ويسجنونه ويوجّهون غيظهم وإهانتهم له، وهو صابر ثابت، مدرك للعبة الصعبة التي تتفاقم حوله.

تراه يلبس ثياب الفرَق التي تلعب، بل إنه يلعب بالكرة نفسها وفي الملعب ذاته، وبشروط الحَكم نفسه، لكنه دائماً يسعى لردّ الكرة إلى النصف الآخر، أو إلى الفريق الخصم. ربما يكون مضطراً لذلك، لأنّ أسباباً ثقيلة، دولية وإقليمية، تدفعه إلى ذلك الملعب الكريه، ويعرف أبو عمّار جيداً أن لذلك «اللعب» ثمناً باهظاً.

إن معضلة ياسر عرفات تتمثل، تاريخياً، في إيجاد جواب شاف لسؤال التنازل عن فلسطين التي تم احتلالها العام 1948، رغم كل المبررات التي يسوقها الذين دفعوا باتجاه حلّ «السلطة الوطنية»، والتي لها وجاهتها، ومن الصعب عدم الالتفات إليها. غير أن عدم إيجاد حلّ لقضية أربعة

ملايين لاجئ فلسطيني في الشتات، والإغراق في الحلّ الجغرافي (الضفة والقطاع) وعدم إبقاء منظمة التحرير الفلسطينية غطاء قانونياً وتمثيلياً للاجئين، يعمّق تلك المعضلة، ويُبقي الأبواب مفتوحة على مصاريعها، للنقد والاتهام.

وبالرغم من أن قوّة الشروط الموضوعية الفلسطينية المحيطة بياسر عرفات، قد تسللت إلى بعض سياسات القيادة والقائد، على وجه الخصوص، فإن أبا عمار كان أكثر مناعة من أن تجتاحه تلك الشروط أو تسيطر عليه. والمفارقة، أيضاً، أن بعض سياسات القائد قد أثرت كثيراً في المحيط المجتمعي الفلسطيني، وظهرت تجلياتها، غير مرّة، وبشكل ظاهر.

إن أعداء ياسر عرفات الذين ينتقدون سلطته بالفساد هم كاذبون، لأن مصلحتهم تقضي بأن تكون السلطة فاسدة، غير أن هؤلاء الأعداء يوظّفون هذه الظاهرة للإساءة لياسر عرفات ولابتزازه والضغط عليه.

وإن مجمل الانتقادات التي يتم توجيهها لياسر عرفات إنما تستهدف ما يمثّله ياسر عرفات وطنياً ورمزياً، ولا تستهدف شخصه أو مساوئ موجودة وتمسّ الشعب الفلسطيني. وهذا لا يعني أن أبا عمار معصوم عن الخطأ، أو غير مُطالب، فلسطينياً، بمعاودة الكثير من الظواهر وتصحيحها، وعَجْم مَنْ حوله، وفرز الكثير من الخطوط المتداخلة.

إنني لا أطالب بتقديس شخص ياسر عرفات، لكنني أعارض تلك الشائعات، التي ليس لها جذر أو أساس، والتي تحاول الإساءة المجّانية لهذا الرجل الذي يصيب ويخطئ، لكنه - رغم كل ذلك - ما زال ذلك المناضل الذي لم يتنازل عن القدس، ولم يعطِ جواده للريح والأعداء.